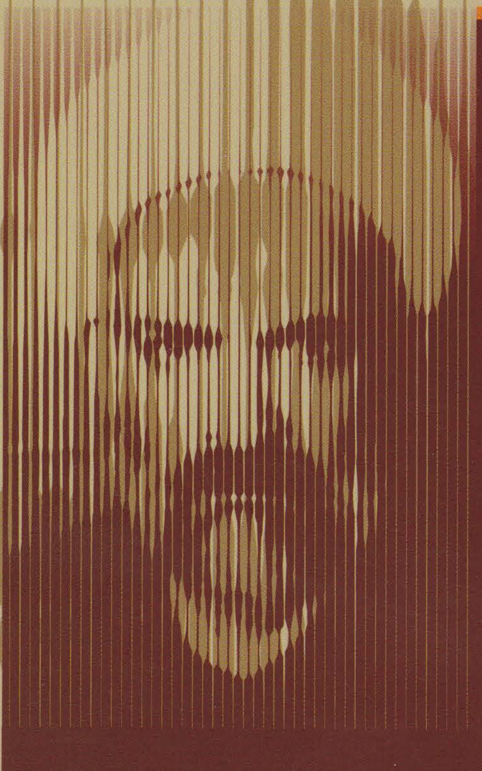
الشيخ محمّد رضا المظفّر

وتطور الحركة الإصلاحية في النجف



الشيخ
محمد مهدي الآصفي

تقديم
ماجد الغرباوي

العارف للمطبوعات

مكتبة مؤمن قريش

الشيخ محمّد رضا المظفّر
وتطوّر الحركة الإصلاحيّة
في النجف

روّاد الاصلاح

سلسلة كتاب تعنى بدراسة مشاريع الاصلاح
التي نهض بها الروّاد المسلمون، وتطمح لرقي وعي الفرد
والامة الى مستوى المسؤولية الرسالية

الشيخ محمّد مهدي الآصفي

الشيخ محمّد رضا المظفّر

وتطوّر الحركة الإصلاحيّة في النجف

تقديم

ماجد الغرباوي

Almothaqaf Arabic Association

العارف للمطبوعات

الشيخ محمّد رضا المظفّر وتطوّر الحركة الإصلاحيّة في النجف

الشيخ محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الأولى 2015
القياس: 14 x 21
عدد الصفحات: 188
ISBN 978-614-441-068-4

من إصدارات

مؤسسة المثقف العربي
سيدني/أستراليا
www.almothaqaf.com
almothaqaf@almothaqaf.com

نشر وتوزيع

شركة العارف للأعمال ش.م.م.

بيروت – لبنان
00961 70 839 503
العراق – النجف الأشرف
00964 7801327828
Trl: www.alaref.net

التوزيع في الجزائر والمغرب العربي:
دار الأبحاث للطباعة للنشر والتوزيع
الجزائر – هاتف: 744281 ـ 21 (00213)
البريد الإلكتروني: www.alabhaath@.com

التوزيع في الأردن:
دار المناهج للنشر وللتوزيع
الأردن – هاتف/فاكس 00962 4650624
البريد الإلكتروني: info@daralmanahej.com

معالم المشروع الإصلاحي عند الشيخ محمد مهدي الآصفي

كان هذا الكتاب ماثلا للطباعة للمرّة الثانية ضمن سلسلة رواد الإصلاح[1] عندما جاء خبر وفاة مؤلفه الشيخ محمد مهدي الآصفي في صبيحة يوم الخميس، 16 من شعبان، 1436 هـ، الموافق 4 - 6- 2015 م. ولما كان رحمه الله رجل إصلاح بامتياز، ارتأيت التوقف قليلا لاستعادة شطر من حياته ومنجزاته خلال عمره الذي امتد 76 عاما، كرّسها لخدمة المبادئ والمحرومين، فكان بارّا بالفقراء والأيتام، كجزء من مشروعه الإصلاحي، فرحيل الآصفي سيترك فراغا كبيرا، وسيفتقده جلّ من كان يرعاهم من عوائل الشهداء والمساكين.

والشيخ محمد مهدي الآصفي عالم مجتهد مفكر، تقي ورع، ولد في مدينة النجف - العراق عام 1939م، أكمل دراسته الدينية على يد علماء كبار أمثال الشيخ المظفر والسيد محسن الحكيم، والشيخ مرتضى آل ياسين، والسيد أبي القاسم

(1) طبع هذا الكتاب: الشيخ محمد رضا المظفر وتطوّر الحركة الإصلاحية في النجف، تأليف الشيخ محمد مهدي الآصفي سنة 1419هـ / 1998م، ضمن سلسلة رواد الإصلاح، وهذه هي الطبعة الثانية ضمن هذه السلسلة.

الخوئي، والامام الخميني، كما أكمل دراسته الأكاديمية وتخرّج من كلية الفقه ثم حصل على شهادة ماجستير من جامعة بغداد. ومارس تدريس الفلسفة في كلية الفقه في مدينة النجف، وكلية أصول الدين في بغداد لمدة 15 عاما. وقد أصدر الآصفي أكثر من ثلاثين كتابا إلى جانب عدد كبير من الدراسات في حقل تخصصه. كما أنه سجّل حضورا ملحوظا في الساحة العلمية إلى جانب حضوره في الساحتين الاجتماعية والسياسية.

- أول مرّة التقيت فيها الآصفي سنة 1981م حينما زارنا في معسكر للمعارضة العراقية، خلال شهر رمضان المبارك. فكان لوجوده طعم الخشوع والعرفان، فصار إماما يصلّي بنا، ومرشدا يوجّهنا، وصديقا يتحدث معنا، حتى فاجأنا بتواضعه رغم انه زعيم سياسي كبير، لكنه جاء بمفرده لا تحفه كوكبة من الحماية كما يفعل الآخرون. كان يطيل السجود لله ويتحدث بنبرة شجيّة تشدّ المستمع حتى يصغي له بقلبه قبل سمعه. بعد ذلك تعمّقت علاقتي به رحمه الله، وازددت بصيرة بآرائه ومشاريعه، وفي هذه المناسبة أسجل بعض المواقف كشاهد على رجل عالم استطاع أن يكسب قلوب الناس من خلال توازن سلوكه وتواضعه:

- يوما التقينا به نحن الهيئة التدريسية لأحد معاهده العلمية، يحدونا الأمل ان يرفع مكافأة التدريس من (40) سنتا إلى (50) سنتا للحصة الواحدة، فحضر الشيخ والهيئة الإدارية

وتحدث جميع الحاضرين، ولما جاء دوري قلت له: لقد تحدّث الجميع فماذا اضيف لكلامهم؟ نريد أن نسمع منك، ونعرف ما هو قرارك؟ فضجّ الشيخ بالضحك، وأخذ يسوّف الموضوع ونحن نحاصره، حتى وافق في نهاية المطاف. فالشيخ كان يشعر بالمسؤولية تجاه ما بيده من أموال رغم اهتمامه الكبير بالمؤسسات التعليمية، فكان يتوقع منّا التضحية ولو على حساب وضعنا الخاص. أو أن نكون مثله في زهده بالحياة. وبالفعل كنّا نعيش ظروفا صعبة، لكن كنا نحلم بتحسّنها.

- كنت أتواصل معه باستمرار عندما كنت أعمل في مجلة التوحيد، فكان الشيخ لا يمتعض أو يتذمر حينما أسجل بعض الملاحظات على كتاباته، بل يتقبلها برحابة صدر ويناقشها بموضوعية، وهذه صفة العالم الحقيقي، صفة يفتقر لها كثير من الكتّاب، خاص من ينتمي لطبقة رجال الدين. فالكاتب بل المثقف غالبا لا يطيق النقد رغم اهتمامه به، الا أن الشيخ كان يتقبّل النقد الفكري والعلمي برحابة صدر.

- عندما طبعت هذا الكتاب سنة 1998م، ضمن سلسلة روّاد الاصلاح التي كانت تصدر على نفقتي، طالبته بدعم المشروع، ولو بشراء بعض النّسخ، حتى طالت جلسة المفاوضات ساعتين أو أكثر، وهو يعتذر، ويسوّف، لأن ما بيده أموال فقراء رغم أن مشروع الكتاب مهم جدا ويجب دعمه وتعضيده، وبدلا من دعم المشروع سألني في نهاية

اللقاء: (كم نسخة راح تعطيني من الكتاب؟؟؟!!) فضحكنا طويلا وبالفعل سلمته 100 نسخه، ولم أحصل منه شيئا. وكلما أتذكّر موقفه يزداد احترامي له، لأنه شعور بالمسؤولية لامثيل له عند مقارنته بغيره من رجال الدين وهم يرفلون بالسعادة بفضل ما بايديهم من أموال وحقوق شرعية.

- وعندما ذهبت لزيارته لهذا الغرض اعتذر مرافقه لعدم وجود مكان للضيوف لأن الشيخ انتقل إلى بيت جديد متواضع حتى يرمم بيته القديم، وغرفة الضيوف كانت مغلقة لتناثر كتب المكتبة، لكنه عندما علم بوجودي رحب كثيرا ودخلنا من النافذة بعد أن عثرنا على مساحة صغيرة نجلس فيها بكل تواضع.

- ذهبت لزيارته مرة وكانت درجة الحرارة دون الصفر فوجدت البيت مظلما إلا من مصباح نفطي (لاله) والشيخ ملتحف بعباءته بدون أي تدفئة، فاستغربت، كيف يجلس هكذا؟ لكنه فاجأني ضاحكا، إن عباءته تكفي!!. بعد ذلك حدثني مرافقه بأن أحد الاصدقاء اشترى للشيخ مدفئة وفي اليوم التالي جاءت امرأة ليس لديها مدفئة وعندها خمسة اطفال فأمرني أن أبعثها لهم!!. قد لا يصدق القارئ هذا الكلام بالنسبة لزعيم سياسي ورجل دين مجتهد ومفكر، تجبى له الأموال من كل مكان، لكن ما انقله أنا شاهده. وليس بالضرورة أن أتفق مع الآصفي بجميع آرائه ومواقفه، لكنها الحقيقة وأنا شاهد عليها.

- يسجل للآصفي رحمه الله موقفه الصارم من قانون (الشأنية) المتبع في توزيع الحقوق والمساعدات المالية، إذ اعتاد الوسط الديني في الحوزات العلمية أن يخص أصحاب الشأن الإجتماعي من رجال الدين بعطايا باذخة، طالما تكون على حساب الفقراء والمساكين، فيعطى صاحب الشأن اضعافا مضاعفة كلا حسب شأنه ومكانته، بينما يهمل الفقير، بل يتجاهله آخرون تحت ذرائع شتى. أما الآصفي فرفض العمل بهذا القانون الجائر، وقال صريحا: الناس سواسية، خاصة ونحن نعيش محنة المهجر معا. وبذلك أعاد للفقراء مكانتهم وحيثيتهم التي سرقها رجال الدين والمتنفذون في أروقة المرجعيات الدينية.

- كان الآصفي محبوبا. زرته يوما وقد سبقني لزيارته مسؤول حكومي، ثم دخل ثالث يبدو من أصدقائه فأجهش بالبكاء شوقا للشيخ وهو يقبله، وكان الشيخ يهدّأه. كم أثّر فينا ذلك المنظر في صدق مشاعر ضيفه الكريم.

- قلما حضرت محاضرات الشيخ الآصفي ما عدا أربع محاضرات قرآنية عن العهد والميثاق، فوجدته عميقا عرفانيا، عالما، واسع الإطلاع. فرحم الله الآصفي الرجل الصديق العزيز، صاحب الرؤية الواضحة، المتفاني في خدمة المحرومين، وهذا ما تفرّد به دون غيره.

المشروع الإصلاحي
للشيخ محمد مهدي الآصفي

عندما نتحرّى مشروع الآصفي الإصلاحي من خلال كتاباته، أو بالأحرى من خلال ما دوّنه في هذا الكتاب وهو يدرس ويتابع المشروع الإصلاحي لشيخه محمد رضا المظفر نلاحظ وجود معالم واضحة في تفكيره الإصلاحي، بل وفي خطواته العملية التي عاصرناها، وهي:

أولا: التكافل الإجتماعي:

كلّ من عاصر الشيخ الآصفي لاحظ جليا أن رعاية الفقراء والمساكين تقع ضمن أولوياته الإصلاحية، ومبدأ أساس لانتشال الإنسان من الفقر كخطوة أولى باتجاه الفضيلة والعمل الصالح ثم الإنطلاق في الحياة. وقد عمل الشيخ على هذا المشروع بشكل واسع من خلال مؤسساته الخيرية وامتداداتها التي تكفلت أعدادا كبيرة من العوائل في أقطار إسلامية متعددة كالعراق وإيران وأفغانستان وباكستان وسوريا. وبهذا سجل مشروع الآصفي الإصلاحي فارقا نوعيا، تجاوز فيه نقطة ضعف أغلب المشاريع الإصلاحية ذات الطابع الإجتماعي، التي بقيت مجرد حبر على ورق أو أفكار عالقة،

لا يعضدها أي مصداق عملي. فطالما بشّرت تلك المشاريع بالرخاء والسعادة، ونجحت بإقناع المحسنين، حتى وفرت أموالا هائلة، لكنها لم تحقق شيئا عمليا مهما، وذهبت الأموال إلى جيوب المتخمين من رجال الدين، أو صُرفت في مشاريع استهلاكية وفاشلة. لذا رغم وفرة الأموال، خاصة أموال الحقوق الشرعية، كالخمس والزكاة والهبات والصدقات إلّا أن منسوب العوز والفقر راح يرتفع في صفوف المسلمين مع كل أزمة سياسية (باستثناء طبقة رجال الدين من معممين وغيرهم)، دون حلول تتدارك الحد الأدنى لرعايتهم، إلّا مشروع الآصفي الذي أخذ على عاتقه إعالة عدد كبير جدا من العوائل الفقيرة، وقد عاش محنة المهجرين العراقيين في إيران بعد أن استبعدهم نظام حزب البعث الفاشي عن بلدهم، كما عاش محنة المهاجرين الأفغانيين الذين هاجروا إلى إيرن هربا من الحرب الدائرة هناك. وكان يزورهم في مخيماتهم، ويتابع أحوالهم، لهذا وَثَق به المحسنون، وساعدوا على نجاح مشروعه من خلال رفده بالأموال والتبرعات الخيريّة.

والذي ساعد على نجاح مشروع الشيخ الآصفي في هذا المجال أكثر زهده بالحياة، وتواضعه لله، وحرصه على أموال الناس. فالمعروف عن الشيخ أنه عاش عيشة الفقراء والمحرومين في مسكنه وملبسه، حتى ضج العاملون معه لشدّة حرصه على ما بيده من أموال، وطالما ردّ على المعترضين بأنها أموال الفقراء وهي أمانة بأيدينا يجب رعايتها. وبالتالي

فالتكافل الإجتماعي والعناية بالفقراء والمحرومين يعدّ معلما بارزا في مشروع الآصفي الإصلاحي، بل هو المشروع العملي الأكبر والأوسع على الاطلاق.

ثانيا: تفعيل الإجتهاد في الفقه الإسلامي

الملاحظ في تفكير الشيخ محمد مهدي الآصفي اهتمامه اللافت بموضوع الإجتهاد في الفقه الإسلامي لتشمل التشريعات والأحكام الفقهية جميع مناحي الحياة. وهذا ما أكّد عليه وهو يدرس مشروع شيخه محمد رضا المظفر، حيث يقول: (ولا يتأتّى للفقه الإسلامي أن يواكب حاجات الإنسان في مختلف ظروفه الفرديّة والإجتماعيّة إذا أغفلنا عنصر التطوير في هذا التشريع)[1]. علما أن للآصفي كتاب بعنوان: "المدخل إلى دراسة التشريع الإسلامي"، ضمّنه رؤيته للتشريع الإسلامي وقابلياته لسدّ الفراغ واستيعاب تطور الحياة، شريطة تفعيل الإجتهاد، لأنّ (الجمود في الإجتهاد على وضعيّة اجتماعيّة خاصّة يفقد الفقه الإسلامي أكبر ميزاته التشريعيّة). بل الشيخ يرفض الجمود على مذهب واحد ويؤكّد على سعة أفق الفقيه من أجل تشريعات تلائم حاجات الإنسان والمجتمع في جميع مناحي الحياة، (فما لم يُطلق الفقه من قيد حصر الإجتهاد في

(1) جميع الشواهد بين قوسين من كلام الشيخ محمد مهدي الآصفي موجود في تضاعيف هذا الكتاب.

مذهب خاص لا يتأتّى للفقه الإسلامي أن يساهم ككائن حيّ في تسيير الحياة الاجتماعيّة وتطوير الأوضاع الاجتماعيّة ومواكبة الحاجات البشريّة المتطوّرة). لذا (نقترح على إخواننا من السُّنة، بإخلاص وتواضع، أن ينظروا إلى مسألة الإجتهاد نظرة جدّية، ويدفعوا التشريع الإسلامي إلى مستوى الأحداث وقضايا اليوم).

وكان منطلقه في كل ذلك طبيعة رؤيته للإسلام، فهو يعتقد أن الإسلام عقيدة ونظام، والمسلم ملزم بالعودة إلى الإسلام في كل مناحي الحياة، و(لا يملك المسلم، إن كان يؤمن بالإسلام عقيدة ونظاماً للحياة أن ينحرف عن التوجيه الإسلامي في شأن من شؤون حياته، مهما كان لونه) فالإسلام شامل في تشريعاته لجميع مناحي الحياة، ويمتلك مقومات التجديد لهذا (لا يقف الإسلام موقفاً سلبيّاً من أيّة ظاهرة اجتماعيّة). بل يدرسها دراسة كاملة في ضوء تصوّره للكون والحياة، ويضع ما يناسبها من تشريعات (فالمسلم بهذا الحكم لا يملك إلّا أن يحدّد موقفه من الظواهر الاجتماعيّة التي تحفّ به بالشكل الذي يقرّره التشريع الإسلامي). ويذهب الآصفي إلى أكثر من ذلك إذ يعتقد أن المرجعيّة الدينية في زمان غيبة الإمام المهدي (وفقا للعقيدة الشيعية) تعني الحكومة الإسلامية بكل ما لهذا المفهوم من معنى، وهذا ما صرّح به في هذا الكتاب، حينما قال: (لذلك فالمرجعيّة الدينيّة في غيبة الإمام تعني "الحكومة الإسلامية" بما في هذه الكلمة من

شمول وعمق. وفي أحاديث أهل البيت عليهم السلام دلالة واضحة على ذلك).

ولا أظنّ أحدا سبق الآصفي بهذا الكلام، إنها رؤية يتفرد بها الشيخ رحمه الله، وربمّا من هذا المنطلق ضمن عقيدته الراسخة بشمول الإسلام لمناحي الحياة بما في ذلك الجانب السياسي جاء انتسابه المبكّر لحزب الدعوة الإسلامية عام 1962، وهو حزب إسلامي شيعي، يطمح لإقامة دولة إسلامية، وقد تدرّج الشيخ في المسؤوليات الحزبية حتى حاز على ثقة الدعاة في الوصول إلى قيادة الدعوة، وكان الناطق الرسمي للحزب سنة 1980م. وقد واجه بسبب إيمانه بالحزب وضرورته متاعب كبيرة خاصة من الوسط الديني في الحوزات العلمية[1]، فضلا عن ملاحقة أزلام السطلة والأمن في العراق وإيران. فالشيخ يعتقد اعتقادا راسخا بشمول الإسلام في تشريعاته، ويعتقد جازما أن الفقه الإسلامي يمتلك مقومات داخلية كافية. (إنّ الفقه الإسلامي يملك في محتواه الداخلي من عناصر التطوير ما يجعله صالحاً لمسايرة الأوضاع الاجتماعيّة في كلّ عهد. وتحديد الإجتهاد بظروف اجتماعيّة خاصّة، كانت تقتضيه، فيزول عندما تزول تلك الظروف وتحلّ محلّها ظروف اجتماعيّة أُخرى).

---

(1) كان الوسط الديني يحرّض الجهلاء ضد الشيخ محمد مهدي الآصفي حتى كادوا أن يقتلوه ويحرقون عليه داره، في الثمانينات من القرن الماضي.

لذا هو يطالب الفقيه بالتفاعل مع الحياة والتعرّف على متطلبات الظروف الزمانية والمكانية، فالفقه في نظر الآصفي لا يعجز عن الإستجابة لمتطلبات العصر، لكنه يشترط تفاعل الفقيه مع الأحداث، لاكتشاف حيثياتها، وما يطرأ عليها، وإلّا (لا يمكن أن يحتفظ الفقه الإسلامي، بما فيه من عناصر الحياة والتطوّر، ما لم يتفاعل مع الأحداث بصورة مستمرّة، يتفتّح لما يحدث في المجتمع من حاجة جديدة أو وضع ويحدّد لنفسه من كلّ ذلك موقفاً تشريعيّاً واضحاً، مستمّداً من صلب التشريع ومن مصادره الأصيلة).

ثالثا: تطوير الأساليب والمناهج الدراسيّة

الملاحظ على مشروع الشيخ الآصفي الإصلاحي أنه يقرن الفكر بالعمل، كما بالنسبة لمشروعه في التكافل الإجتماعي، وأيضا في مجال تفعيل الإجتهاد في الفقه الإسلامي، حيث كتب ونظر للموضوع كثيرا خلال مؤلفاته. أمّا في مجال تطوير الأساليب والمناهج الدراسية الدينية فان للشيخ خطوات عملية مهمة، حيث أسّس عدّة مؤسسات تعليمية تراعي شروط التطوّر العلمي في دراسة المناهج الدراسية، شملت الرجال والنساء، وقد تخرج منها مجموعة طلاب واساتذة يتمتعون بالوعي والشعور بالمسؤولية.

وينطلق الشيخ في اهتمامه بالمؤسسة التعليمية منطلقا حضاريا، إذ يعتقد أن المؤسسات التعليمية الدينية (كأيّ كائن

آخر بحاجة إلى أن تتطوّر، بنفسها، مع الزمن، تواكب مسيرة الحضارة الصاعدة، في خطواتها، ليتاح لها أن تحتفظ بمكانتها العلميّة والاجتماعيّة وليقدّر لها أن تستثمر هذه المكانة في مجالات التثقيف والتوجيه الاجتماعي في ضوء من تعاليم الإسلام). من هنا رفض الشيخ أي مبرر للإنكماش وعدم التطوّر من خلال اعتماد أساليب تدريسيّة حديثة، أو من خلال تطوير المناهج الدراسية، والتخلص من المناهج القديمة المسكونة بصعوبة العبارة على حساب الفكرة ووضوحها، حتى يقضي الطالب سنوات مشغولا بفك العبارة ومعرفة معانيها، بينما يبقى متخلّفا فكريا، وهذه خسارة فادحة. كما إن عدم التطوّر والإنكماش يفضي إلى عزلة اجتماعية وحضارية تقضي على المؤسسة الدينية برمتها، لذا هو لا يلجأ للتبرير بل ينتقد ويؤشر على الخطأ بكل جرأة، ويلوم التقاعس والإنكماش، فيقول (لا أُريد أن أُبرّر مثل هذا الإنكماش في المدرسة النجفيّة، فإنّ الانطواء على الذّات مهما كانت أسبابه يؤدّي إلى العزلة والإنفصال عن المجتمع ومن ثمّ الموت، إذا لم تحاول أن تدمج نفسها في المجتمع الإنساني من جديد.)

ويتألم الشيخ كثيرا لأنه (لم يحاول أحد توسعة مناهج التربية والتعليم وتطوير أساليب الدراسة والتربية ومواكبة التطوّر التربوي والدراسي في العالم). فيعتبر هذا التخلف خسارة فادحة، وخطرا يهدّد استقلال البلاد ويسمح بنفوذ الإستعمار، حيث أكد بقوله (نجح المسلمون في القضاء على الإستعمار

بعد صراع طويل، لكن المقاومة لم تتجاوز حدود الصراع والجهاد ولم تدخل دور التكوين والتخطيط، وبقي المسلمون يعانون في حياتهم الإجتماعيّة من فراغات هائلة، واستطاع الإستعمار أن ينفذ مرّة جديدة في البلاد الإسلامية عن طريق هذه الفراغات، يسترجع منها مراكزها الإستراتيجيّة والدبلوماسيّة، وأن يملأ هذه الفراغات عن طرق غير مشروعة).

ويعتقد الآصفي أن عملية إصلاح التعليم تتمّ على مستويات:

- تطوير الكتب والمناهج الدراسية. فالآصفي يرفض الجمود على كتاب واحد أو منهج قديم، بل المناهج كأي كائن تنمو وتتطوّر، وينبغي أن تتطوّر الكتب الدراسية لتلائم حاجة العصر.

- اعتماد الأساليب والطرق الحديثة في التدريس، والكف عن الأساليب البدائية، خاصة وأن العالم يخطو خطوات واسعة في هذا المجال أكثر نفعا في تطوير الدراسات العلمية.

- الإنفتاح على تدريس علوم أخرى تساهم في رفع مستوى الطالب، كي ينفتح على الحضارة الجديدة ومنجزاتها، ويواكب مسيرة التطوّر العلمي، ويتعرّف على شروط النهضة. فما بيد الطالب من علوم لا تكفي لحاجات العصر والزمان، وهناك علوم ضرورية لرجل الدين، بل تدخل في صميم

اختصاصه، كعلم التربية، وعلم النفس، وعلم الإجتماع، والتاريخ وغيرها.

فالآصفي يعتقد أن المناهج والكتب الدراسية وأساليب التدريس القديمة لا تساعد على تطوّر الدراسة الدينية، وهذا الأمر كما يقول لا يقتصر عليه بل كان مجموعة من العلماء الواعين يشعرون بخطورة الأساليب التدريسية المتّبعة وضرورة تطويرها، و(هذا هو التفكير الذي يبدو ظاهراً على بعض رجالنا الذين كانوا يحلمون بإصلاح نواقص الدراسة العلميّة في معاهد النجف الأشرف، فإنّ هذه النواقص كفقدان نظم التربية والتدريس في الإمتحانات والمواد العلميّة والأوقات والشهادات كانت تهدِّد المفكِّرين منّا بشلّ الحركة العلميّة في مستقبل الجامعة القريب أو البعيد، يوم إن اصطدمت سفينة هذه الجامعة القديمة بتيّار هذا العصر الجديد فهزّتها في بحر متلاطم بالميول. ولكن الوقت الذي كانوا يفكّرون في هذا كان يعوقهم عن التقدّم في العمل ذلك التفكير المؤلم).

وللشيخ ما يبرر رؤيته السلبيّة للكتب والمناهج الدراسية المتداولة، لأن (هذه المواد على ما لها من الأهمّية في تكوين ذهنيّة الطالب لا تنهض وحدها بواجبات الطالب الرساليّة من توجيه ودعوة وتبشير وتثقيف. ولا يستطيع الطالب أن يقتصر على هذه المادّة التي يتلقّاها في هذا الدور لو أراد القيام بدوره من التوجيه والدعوة على أوسع نطاق).

وكان الآصفي طموحا في رؤيته لطالب العلم من أجل أن

يرقي علميا وفكريا، وعليه يجب على كل طالب أن (لا يستغني، وأن يتعرّف على مناهج الفكر الحديث وبعض الدراسات البشريّة وحقول من المعرفة التجريبيّة، كما لا يستغني من أن يملك الأداة البيانيّة الكافية من كتابة وخطابة للقيام بواجبه الرسالي في حقول الدعوة والتوجيه، ولو أراد الطالب النجفي أن يوفي هذه الحقوق الجديدة من الفكر حقّها من الدراسة والمعرفة فلا يتاح له بعد ذلك أن يتوسّع هذا التوسّع الهائل في دراسة النحو أو الصرف أو البلاغة، وما يحمل في طيّاتها من أبحاث طويلة هي إلى الترف الفكري أقرب منها إلى أيّ شيء آخر).

رابعا: العمل السياسي المنظّم

يؤمن الشيخ محمد مهدي الآصفي بضرورة العمل السياسي المنظّم من خلال الاحزاب والجمعيات، وبالفعل انتسب إلى حزب الدعوة الإسلامية سنة 1962، وكان هدف الحزب إضافة إلى عمله الدعوي تشكيل أو قيام حكومة إسلامية تعتمد النهج الإسلامي في حياتها، وكان فاعلا في حزب الدعوة، وساهم في كتابة بعض نشراتها، وكان الناطق الرسمي للحزب منذ سنة 1980، وقد تعرّض بسبب انتمائه للحزب إلى مضايقات نفسية واجتماعية وحتى محاولات اغتيال[1]، لكنه لم

(1) على صفحته في فيسبوك كتب عبد الكريم ابو معتز (مرافق الآصفي) =

يلن، كما اتهموه في ولائه للثورة الايرانية وقائدها، ولم يكترث إطلاقا بل واصل مسيرته واثقا بنفسه، إلّا إنه استقال من الحزب سنة 1999 م، ليتفرغ لمؤسساته الخيرية والتعليمية. ثم بعد سقوط نظام بغداد عاد إلى النجف وصرحها العلمي ممثلا لمرشد إيران السيد علي خامنئي، لمدة عشرة سنوات، ثم انشغل بمرضه وصحته، كي ينتقل إلى ربه سنة 2015 م.

ويسجل للآصفي رحمه الله حضوره في الساحة السياسية من خلال تفاعله المستمر مع جميع انشطتها، وحضوره لأغلب مؤتمراتها في عدد من الدول، كما كان ناشطا في التجمعات السياسية العراقية الأخرى ما عدا حزب الدعوة كجماعة العلماء في العراق، والمجلس الإسلامي الأعلى. وكان حاضرا في كل فعالية سياسية تقررها المعارضة العراقية آنذاك.

= تحت صورة نشرها تجمعه مع الآصفي معصوبا، وقد كتب عليها: [الفقيد سماحة الشيخ الآصفي (قدس الله نفسه الزكية) بعد تعرّضه لمحاولة الاغتيال في قم المقدسة عام 1994م وقد طعنه المجرم بعدة طعنات بالسكين في رأسه وكتفه .. وقد عفى (رض) عن المجرم وبقي الحق العام وكان يزوره في السجن أسبوعيا ويأخذ له ما يحتاج من طعام أو ملابس وسكائر وأشياء أخرى وعندما سافر أوصاني بزيارته والسؤال عنه . . . . . عبد الكريم ابو معتز].

مبادئ أساسية
في مشروع الآصفي الإصلاحي

بعد اطلاعي على ما كتبه الشيخ في هذا الكتاب حول المشروع الإصلاحي لأستاذه الشيخ المظفر اتضح لي أن الآصفي يرتكز في رؤيته ومنهجه الإصلاحي إلى مبادئ أساسية، تشكّل بمجموعها ملامح منهجه الإصلاحي، وهي:

1 - التفكير بالبناء قبل مباشرة الهدم، لان (الهدم - كما يقول الشيخ - لا يفيد، ولا ينهض بشيء، ما لم يكن هناك بناء وراء ذلك). وعليه من يفكّر بهدم أي صرح، اجتماعي أو سياسي، أن يطرح بديلا يتدارك به تداعيات الهدم والفراغ الذي يخلّفه، ويصدق هذا دائما مع المؤسسات التعليمية والخدمية. وهو مبدأ مهم وإيجابي يدفع باتجاه التطوّر والإبتكار، وبهذا يتحقق الإصلاح عملا بأنصع صوره.

2 - بهذا الإتجاه يوصي الآصفي بتجاهل الإنتقادات اللاذعة التي تواجه كل مشروع. والإنتقاد صفة سلبية وعامل مثبّط، لكن للأسف (اعتاد الناس أن يصغوا إلى هذا النقد اللّاذع الذي لا يبقي على شيء ولا يَذَر)، كما (اعتاد الناقدون أن يتناولوا شؤون الحياة بالنقد الساخر، الذي لا يعرف

الرّفق). وأشدّ ما تعانيه الحركات الإجتماعية والسياسية الإنتقاد أو النقد الهدّام، المثبّط للعزائم، غير إن الهمم العالية لا يفت بعضدها الإنتقاد والتجريح ما دامت واثقة من خطواتها. فكثير من الناس لا عمل له سوى الإنتقاد، وهؤلاء يشكّلون خطرا جدّيا على مسيرة المشاريع الإصلاحية دائما. لان النقد بطبيعته عمل ايجابي ما دام عملا تقويميا، يلحظ ايجابيات العمل وسلبياته، وربما يقدّم حلولا ناجحة لها، أمّا الإنتقاد فعمل سلبي يركز على السلبية، ونظرة متشائمة تعصف بمستقبل المشاريع الإصلاحية. فالموقف الصحيح هو تجاهل الإنتقادات السلبية، بعد التأكّد من كلّ خطوات المشروع ودراسة حيثياته.

3 - تجريد العمل الثوري من العاطفة، كي يحتفظ بمنطلقاته العقلائية ولا يتحوّل إلى عمل عدواني أو عبثي، لأن (العمل الثوري الذي يصدر عن العاطفة لا ينفع ... بل يؤدّي إلى نتيجة معاكسة تماماً). كما (إنّ الحركات الثوريّة تؤدّي في مثل هذه الأوضاع إلى إبعاد القائمين بالعمل عن الوسط الاجتماعي وعزلهم عن النشاط الإصلاحي). وهذا مبدأ آخر ضمن العملية الإصلاحية، وتشخيص دقيق لطبيعة الأعمال الثورية، وما يتمخّض عنها حينما تستند إلى العاطفة. وما أكثر الحركات الثورية التي أفضت العاطفة إلى عزلها عن المجتمع، وربما اندثارها بعد تعطيل فاعليتها.

4 - اعتماد التخطيط والمسح الميداني والدراسات

الموضوعية قبل المباشرة بأي مشروع عملي، وإلّا (لا يكاد ينفع العمل الإصلاحي .. ما لم يكن مقروناً إلى دراسة الوضع دراسة موضوعيّة شاملة وإلى الرؤية)، وأيضا مراعاة (التدرّج في العلاج). وهذا مبدأ آخر يستند إلى نفس الأسلوب القرآني بالتدرّج في معالجة القضايا الإجتماعية الراسخة، وهو مبدأ مهم لضمان نجاح العمل على المدى البعيد، وتدارك أي رد فعل ينعكس سلبا على المشروع.

5 - التحذير من الطائفية، وعدم التعامل بنَفَسٍ طائفي، فينبغي التعامل مع الآخر المختلف مذهبيا بروح إيجابية متسامحة، وعدم إشعاره بالنقص، لتجنب إي رد فعل سلبي ينعكس على العلاقة بين ابناء الأمة الواحدة. ويؤكد الشيخ: (تعتبر الطائفيّة من أسبق المشاكل التي اعترضت سير الحياة الإسلامية، منذ وفاة صاحب الرسالة. ومن البديهي أنّ المفكّرين من المسلمين لم يقفوا موقفاً لا أُباليّاً إزاء مشكلة متمكّنة من جسم المجتمع الإسلامي، من نحو ذلك، دون أن يحاولوا أن يجدوا علاجاً لها، طيلة هذه القرون الطويلة التي مرّت على المسلمين). لكن ينبغي أن يكون علاج الطائفية مؤثرا، ايجابيا، لا سلبيا فـ (قد أفادتنا التجارب التي مرّت على حياة المجتمع الإسلامي أنّ هذا اللّون من العلاج، الذي يتمخّض عن الشعور بالنقص والسلبيّة لا ينهض بشيء في هذا السبيل، وكلّ جهد يبذل في سبيل ذلك لا يعود على أصحابه بعائد، غير توسعة شقّة الانشطار وتجديد حِدّة الخلاف بين

صفوف المسلمين). فالتعامل بإيجابية مع المسألة الطائفية يعدّ مبدأ مهما في العمل الإصلاحي، خاصة في مجال توحيد الأمّة المنقسمة على نفسها بسبب الأسلوب السلبي في التعامل مع الآخر، وبنَفَس طائفي مقيت. وما الصراعات والمشاحنات القائمة بين المذاهب الإسلامية إلّا مصداقا للأسلوب السلبي في معالجة الطائفية بين أبناء الأمة الواحدة. فنسيان القضايا التاريخية يعدّه الشيخ عملا سلبيا، لان الشعوب لا تنسى تاريخها، ولغة التنابذ والتراشق عمل سلبي أيضا، بينما لغة الحوار واعتماد الموضوعية في دراسة التاريخ يعدّ عملا ايجابيا، يفضي إلى نتائج طيّبة تساعد على ردم الهوّة الكبيرة بين أبناء الأمة الواحدة.

6 - نبذ الألقاب، وعدم اعتمادها كقيمة للتفاضل بين الناس. ويقصد الشيخ بالألقاب ما يضاف لرجل الدين من ألقاب ما أنزل الله بها من سلطان، إنّما هي صفات طارئة لتضخيم مكانته وفرض سلطته على الناس كلقب: آية الله، حجة الإسلام، حجة الإسلام والمسلمين، ثقة الإسلام، العلّامة، الفهّامة إلى غير ذلك. فالآصفي يعتبر الإهتمام بالألقاب فقر فكري، و(الأُمم التي تعاني شيئاً من الفقر الفكري تهتمّ بالألقاب أكثر من غيرها، كما أنّ الألقاب الضخمة تشيع عادةً بين الأُمم المتأخّرة فكريّاً، ولا شكّ أنّ التسابق إلى الألقاب ظاهرة اجتماعيّة تلفت النظر، وأكثر ما تدلّ على التأخّر الإجتماعي والفقر الروحي فيتفنّن الناس

بالقشور، ويزهدون بالحقائق واللّباب. وهذا مركّب نقص اجتماعي، أكثر منه مركّب نقص فردي). وللأسف تارة تطلق هذه الألقاب على شخصيات هزيلة علمية، فتؤثر سلبا على أصحاب المواهب الحقيقية، وبهذا ترتبك قيم التفاضل بين رجال الدين والعلماء.

7 - التصحيح بدلا من المواجهة، وهو مبدأ يرتبط بالعمل الحركي، وكيفية مواجهة التيارات المنحرفة، فالآصفي يرى تصحيح مجرى التيار المنحرف أفضل وأصح من مواجهة نفس التيار، خاصة بالنسبة للشخص أو الحزب أو الجماعة الضعيفة. (فمن الخطأ أن يعاكس الإنسان، وهو فردٌ ضعيف، أو مجموعة من الأفراد تيّار الماء الجارف، عندما ينحرف عن الاتّجاه الصحيح، وإذا قدّر له أن يعاكس التيّار لفترة من الزمن ويتّخذ منه موقف السلب والنفي، فلا يتاح له، مهما أحسنّا به الظنّ، أن يستمرّ في مثل هذا الوضع السالب مدّة طويلة من الزمن، حيث لا يمرّ عليه حين حتّى تنهكه هذه المقاومة السلبيّة التي لا تنمّ عن إدراك صحيح لواقع المشكلة ووعي لملابساتها، وينجرف مع التيّار بعد أن نفذت طاقته في المقاومة). والبديل الصحيح لمعالجة المشكلة كما يراها الآصفي (لو كنّا نحسن فهم واقع المشكلة، ونعي ملابساتها، لعلمنا أنّ المشكلة لا تكمن في "الإنحراف" وحده، لنتّخذ منه مثل هذا الموقف السالب، بل إنّ جذور المشكلة تكمن في دفع التيّار الذي لا يمكن أن يرجع إلى الوراء ولا يمكن أن

يقف عند حدّه). وهذه ملاحظة دقيقة، فالتيار عندما يكون جارفا لا يمكن مواجهته والوقوف بوجهه، لكن يمكن العمل على تصحيح مساره. وهذا مبدأ مهم ضمن منهجه الإصلاحي، من هنا اعتمد حزب الدعوة الإسلامية التدرّج أو ما يعرف بالمراحل الأربعة في التغيير، وفقا لنظرية الحزب الذي يقع الشيخ الآصفي في قمة هرمه. وبالتالي يلخّص الشيخ وجهة نظره بقوله: (والعلاج الصحيح هو تعديل المجرى مع المحافظة على "دفع المجرى" إلى الخطّ الصحيح، وليس في مقاومة التيّار أيّ نفع غير الإنهاك والانجراف مع التيّار). ولعل أفضل مثال: عندما ينحرف الإتجاه الديني بسبب الخرافات والأساطير ويتحوّل إلى تيار جارف، كما بالنسبة للشعائر الحسينية التي غزتها الخرافات والطقوس الغريبة على الدين والقيم الدينية، فالوقوف بوجه التيار يمثّل خطرا، تنعكس تبعاته على الدين والمذهب، لكن تصحيح المسار، يساهم في إصلاح ذلك الإتجاه مع المحافظة على زخمه. فيبقى اتجاها دينيا سليما في أهدافه ومساره. لهذا نرى تجذّر الظاهرة الخطأ بالنسبة للشعائر الحسينية وعدم القدرة على إصلاحها لأن (المشكلة تكمن في فهم الواقع الإجتماعي وما يحفّه من الملابسات، وما يطرأ عليه من الأحداث، وما يصلح له من فنون العلاج).

* * *

كانت هذه ملامح المشروع الإصلاحي للشيخ الآصفي، وفقا لما كتبه في هذا الكتاب. من الممكن أن تتطوّر هذه الملامح من خلال دراسة بقيّة أعماله الفكرية، فالآصفي يستحق دراسة تستوعب جهوده الإصلاحية، ومن الله نستمد العون والسداد

ماجد الغرباوي
سيدني - استراليا
2015 /6 /16

تقديم

تعود النجف في تاريخها العلمي إلى زمن الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي (ت460 هـ)، بعد ما ترك بغداد وفضاءها العلمي أبان الفتنة الطائفيّة التي أثارها الوالي السلجوقي (450 هـ) وحطَّ ركابه قرب مرقد الإمام عليّ ليؤسّس هناك نواة أوّل حوزة علميّة (الجامعة الإسلاميّة) تعنى بدراسة العلوم الدينيّة، فبدأت النجف منذ ذلك الحين رحلة الفكر والمعاناة المستمرّة.

ورغم أنّ الحوزة العلميّة قد غادرت النجف في فترات محدّدة إلّا أنّها عادت إليها ثانيةً لتكون مركز استقطاب كبير للجاليات الإسلاميّة الوافدة لغرض الدراسة والتفقّه في الدِّين.

أمّا رحلة الفكر فتمثّلت بالوتيرة التصاعديّة لتطوّر الفكر والمعرفة الدينيّتين حتّى بلغتا شأواً كبيراً، بفضل الجهود المتواصلة للعلماء والمفكِّرين المسلمين من أتباع مدرسة أهل البيت.

وتبقى المكتبة الإسلاميّة أفضل شاهد يؤكِّد التواصل الفكري الممتدّ قرابة ألف عام. ويؤكّد الخصوبة المعرفيّة التي امتازت بها هذه المدرسة في حقل اختصاصها.

ثمَّة حقيقة، إنّ الحوزة أصبحت إضافةً إلى مرجعيّتها في الفتيا وبيان الأحكام الشرعيّة، مرجعاً قياديّاً للطائفة الشيعيّة، أثبتت صدقيّتها من خلال الأحداث الكبيرة والخطيرة، لا سيّما في القرن الأخير. فمرحلة المعاناة إذاً تزامنت مع تصدّي المرجعيّة الدينيّة لمسؤوليّاتها التاريخيّة والشرعيّة وصمودها بوجه العنف الطائفي والسياسي الذي كانت تمارسه الحكومات الجائرة، حيث دأبت على توجيه سهامها القاسية ضدّ علماء الدِّين باعتبارهم مصدر قلق يهدِّد شرعيّة السلطة ويعرّي المسحة القدسيّة الزائفة المتلبّسة بها والمترشّحة عن الخوف والإرهاب والاستبداد الذي تمارسه ضدّ الاُمّة. فكان ذلك سبباً لمعاناة مدرسة أهل البيت، طوال الفترة الممتدّة ألف عام، ويؤكّد مظلوميّتها التاريخيّة، غير أنّها لم تتقاعس تجاه واجبها، بل سجّلت مواقف شجاعة تركت بصماتها على صفحات التاريخ. ولعلّ بدايات القرن العشرين أكثر تجلّياً لتلك المسؤوليّات، حيث قاد علماء الدِّين في العراق ثورة العشرين (1920م) ضدّ الاحتلال البريطاني لبلادهم. فساروا من النجف إلى منطقة الشعيبة في البصرة، يتقدّمون جحافل الجيوش الشعبيّة التي استجابت لنداء المرجعيّة الدينيّة.

كما سجّلت الحوزة مواقف مشرّفة أبان ثورة النجف، وفي وقوفها إلى جانب الدولة العثمانيّة ضدّ الانجليز، رغم ما عانوه من الحكم العثماني الطائفي. لأنّ المواجهة أصبحت بين الإسلام والكفر، والطرف الأوّل قد رفع راية الإسلام، فأملى

عليهم الواجب الديني التخلّي عن الخلافات الداخليّة لمواجهة العدوّ المشترك.

وظلّ العلماء إلى جانب الاُمّة، والاُمّة منقادة لهم في بدايات الدولة القوميّة في العراق حتّى سنوات متأخّرة في نهاية القرن الحالي.

والحال ذاته في إيران حيث قاد العلماء ثورة التبغ (التمباكو)، والثورة الدستوريّة (المشروطة)، والثورة الإسلاميّة في ايران.

تلك المسيرة المشرّفة للحوزة العلميّة لا تعيق النفوذ إلى داخلها عبر المناطق الهشّة، فكانت معاناتها كبيرة من هذا الجانب، وهذا ما تؤكده مسيرة تيّار الإصلاح وما واجهه من تحديات وهو يمدّ الحوزة بدم يجدد لها الحياة. وإنّما عاشت الحوزة ألف سنة بفضل المصلحين والمجدِّدين، وإن عجز البعض عن إدراك ذلك، وحاول الآخرون طمس الحقائق التاريخيّة بعيداً عن الموضوعيّة، واستجابةً لإرادات غير واعية. ولا نريد اللجوء لكثرة ما نمتلكه من أرقام أو نتوسّل إلى التاريخ في إثبات ذلك، بل يكفي الكتاب الذي بأيدينا شاهد حقّ ضبط معاناة المصلحين وهم يحملون هَمّ الإصلاح والتجديد في الحوزة العلميّة. فالكتاب يدور حول أبرز المصلحين في القرن الأخير وهو الشيخ محمّد رضا المظفّر، والكاتب هو أحد طلّابه المبرّزين في مجال الوعي الرسالي

وأحد قادة الحركة الإسلاميّة في العراق، وهو الشيخ محمّد مهدي الآصفي[1]. وقد كتب الكتاب وفاءً لُأستاذه سنة 1383هـ تحت عنوان (مدرسة النجف وتطوّر الحركة الإصلاحيّة فيها... خلال من حياة الشيخ الراحل المظفّر ودراسة عن الحياة الفكريّة في النجف).

ولثراء الكتاب، وكونه وثيقة تاريخيّة مهمّة، قرّرنا إعادة نشره ضمن سلسلة روّاد الإصلاح.

* * *

كان وعي الشيخ المظفّر كبيرا، لا يلائم مناخات الوسط الذي اكتنفه آنذاك، إلّا أنّه استطاع أن يخطو خطوات واسعة عبر مشاريعه العمليّة، وظلّ وفيّاً لأفكاره في الإصلاح والتجديد.

ومن يتأمّل حياة هذا الرجل العظيم تستفيق أمامه كلّ لحظات اليأس المترشّحة عن تعقيدات الوضع القائم، والتي تشكّل ـ عادةً ـ تحدّياً يفت بعضد المسيرة. فحينما نقرأ مذكّراته عن ولادة مشاريعه الإصلاحيّة ـ في هذا الكتاب ـ نستكشف حجم المعاناة عندما تتحوّل الأفكار إلى مشاريع يُراد لها أن تشقّ طريقها وسط اللّغط المتصاعد ضدّ أيّ مشروع إصلاحي،

(1) انتقل مؤلف الكتاب، الشيخ محمد مهدي االآصفي الى جوار ربه يوم الخميس 4-6-2015، بعد صلاة الفجر في مدينة قم الايرانية بعد صراع مرير مع المرض.

والذي تغذّيه عادةً نفوس تعيش في دوامة من عدم الوضوح فتشكّك في نوايا كلّ من تحدّثه نفسه بالإصلاح والتجديد، عدا بعض من تتضرّر مصالحهم، بيقظة الأُمّة وعودتها إلى وعيها، الّذين يستغلّون العواطف النبيلة والبريئة لأفراد الأُمّة ويوظّفونها لخدمة «الأنا» لا لخدمة الدِّين. فلا نستغرب حينئذ من الحملات المسعورة ضدّ أئمّة الإصلاح والتجديد. بل إنّ ذلك يؤكّد العزم على مواصلة مشاريع الإصلاح من أجل أن يبقى الدِّين حيّاً وفاعلاً في ضمير الفرد والمجتمع.

فهذا الإمام الخميني يأن من بعض رجال الدِّين فيقول: «إنّ رجال الدِّين العملاء، المتظاهرين بالقداسة والمتحجّرين منهم، لم يكونوا قلّة يوماً ما، ولن يكونوا. ففي الحوزات العلميّة من ينشط ضدّ الثورة وضدّ الإسلام المحمّدي الأصيل»[1].

ويقول: «أضحى وضع المجتمع الإسلامي هذه الأيّام بنحو باتَ فيه متصنّعوا القداسة يعيقون تأثير الإسلام والمسلمين، ويطعنون الإسلام باسم الإسلام. وأساس هذه الجماعة ـ الممتدّة في المجتمع ـ من الحوزات العلميّة. ففي حوزات النجف وقم ومشهد وغيرها من الحوزات يوجد أشخاص يحملون روحيّة التظاهر بالقداسة، ومنهم تسري

(1) الخميني، الإمام روح اللّه، صحيفة النور، طهران، مؤسّسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، ج19، ص91.

روحيّة وأفكار السوء في المجتمع باسم الإسلام»[1].

أمّا الشيخ المظفّر فذكر أنّه ومن حمل معه هَمّ التغيير قد عاشوا ظروفاً أشبه بالأسطوريّة، لا سيّما في وسط ينبغي أن يكون مصدراً للوعي واليقظة، غير أنّه يقول: «ولا أزال أحتفظ بمحاضر جلسات جماعتي الأُولى تلك وبمذكّراتي الخاصّة عنها وعن غيرها، وهي على بساطتها تمثّل لي مقدار التكتّم والخوف الذي كان يساورنا وكان عملنا وتفكيرنا مقتصراً على تفقّد المفكّرين من أصحابنا الذين يحسّون بالدّاء مثلنا، وبالرغم من مواصلة الجلسات والتفكير طيلة عام واحد لم نستطع أن نخرج صوتنا من غرفتنا إلّا بعض الشيء، ولم نستطع أن نضمّ إلينا أكثر من عشرة أعضاء....»[2].

وعندما تقرّر فتح معهد للخطابة يهدف إلى إعداد خطباء رساليّين ينهضون بمسؤوليّة المنبر الحسيني بالشكل الذي يتناسب مع أهدافه أُجهضت المحاولة سريعاً من قِبل النفعيّين، إذ «لم يمض على فتح هذا الصف التجريبي قرابة شهر واحد إلّا وثارت ـ على غير انتظار ـ زوبعة عنيفة على هذه اللّجنة، بحجّة أنّها تسعى لتحديد نوع خطابة المنبر الحسيني وتحديد أشخاص الخطباء، وبحجّة أنّها تريد أن تقلّص من ذِكر الحسين (عليه السلام)، وبغير ذلك من التُّهم الباطلة التي كانت تُكال

(1) المصدر نفسه، ص209.
(2) أُنظر: الفصل الثاني من الكتاب، ص94.

على هذه اللّجنة في حين أنّ أعضاءها كلّهم من مشاهير الخطباء وأتقيائهم الذين يحرصون كلّ الحرص على خدمة الحسين (عليه السلام) ومنبره. وما كان تأليفهم اللّجنة إلّا بدافع الإخلاص للدعوة الحسينيّة لغرض تثقيف ناشئة الخطباء. وقد تكهرب جوّ النجف بهذه التُّهم ضدّ اللّجنة ممّا اضطرّ معه أصحاب اللّجنة إلى أن يسرعوا في إلغائها تفادياً من وقوع ما لا تُحمَد عقباه.... وقد امتحن الشيخ المظفّر في هذه المرّة امتحاناً عسيراً، وكادَ أن يقضي ذلك كلّه على حياة المؤسّسة التي غذّاها الشيخ بروحه وفكره بإخلاص»[1].

ورغم ما تعرّض له الشيخ المظفّر من متاعب وآلام سبّبها له المتشدّدون المتقوقعون في دائرة الذات، أو المغرضون الذين ارتبطت مصالحهم بوجود فهم خاطئ للإسلام ومبادئه، إلّا أنّه استطاع أن ينهض بمشروع عملي تمثَّل بإعداد بعض المناهج الدراسيّة، وتأسيس مدارس منتدى النشر وكلّية الفقه. فخلق تيّاراً من الوعي وأنتجَ طيفاً واسعاً من الذين استوعبوا هموم الرسالة، وقدّموا للُامّة صورة ناصعة عن الإسلام، وبذلك تمكّنوا من تثبيت أركان الوعي وتمهيد الطريق للجيل القادم، من أجل مواصلة درب الإصلاح والتجديد الذي رعاه رجال الُامّة وقادتها من السيّد جمال الدِّين إلى الإمام الخميني العظيم.

(1) راجع الفصل الثاني من الكتاب، ص109 ـ 110.

وسيعلم الجميع أنّ طريق الإصلاح وإن كان محفوفاً بالمخاطر وأكبرها أن يُتَّهَم المرء بدينه وعقيدته وربما بشرفه، إلّا أنّ ذلك لا يمنع الهِمَم العالية من مواصلة الطريق لا سيّما وفينا من يرفع صوته بشجاعة ـ كالإمام الخامنئي ـ : «إنّني أعلن استعدادي لدعم كلّ حركة في مضمار الإصلاح».

ماجد الغرباوي

5/ رجب/ 1419

26/ 10/ 1988

الفصل الأوّل

الحياة الفكريّة في النجف

لا يتأتّى للباحث، مهما أُوتيَ من استيعاب ومقدرة في البحث، أن يفصل الشخص الذي يريد أن يترجم له عن المحيط الذي نشأ فيه، أو يعزله عن الوسط الذي عاشه. فإنّ للمحيط، أيّ محيط كان، أثراً كبيراً في نشأة الفرد من الناحية العقليّة والعاطفيّة معاً.

وقد تبدو الشخصيّة للباحث ظاهرةً غريبة، لا تحتمل أيّ تفسير واضح، فإذا وضعها في موضعها الطبيعي من الوسط الاجتماعي الذي نشأت فيه زالت عنها هذه الغرابة التي كانت تبدو للباحث أوّل الأمر.

ولذلك فإنّ الدراسات التاريخيّة الحديثة تعتمد في تفسير الأحداث التاريخيّة ونشوء الشخصيّات على دراسة المحيط الاجتماعي والجغرافي والملابسات التي تحفّ بهذا المحيط وتكتنفه.

ومن هنا أكّدت البحوث الاجتماعيّة والنفسيّة على ضرورة هذه الملاحظة في حقوق الدراسات التاريخيّة حتّى أضحت كلّ

دراسة من هذا النوع تهمل هذا الجانب من البحث فاقدة لطابعها العلمي المتين.

وقد أفادت الأبحاث التاريخيّة الحديثة كثيراً من هذا المنهج في كشف الحلقات المفقودة من التاريخ وربط الأحداث التاريخيّة بعضها ببعض حتّى أصبح التاريخ الحديث يُعنى بربط حلقات الأحداث وملئ الفراغات منها بما توحي به الملابسات المحيطيّة، بعد أن كان يُعنى بعرض هذه الأحداث بصورة مفكّكة، يغلب عليها الطابع التجزيئي والانحلالي.

وفي ضوء هذه النظريّة نحاول أن ندرس نشأة فقيدنا الشيخ محمّد رضا المظفّر العلميّة والإصلاحيّة، فقد نشأ الشيخ المظفّر في الجامعة النجفيّة، وتأثّر بهذه البيئة تأثّراً بالغاً بما يحفّها من ملابسات، وبما فيها من انطلاقة وما فيها من حدود. فقد كان لهذه البيئة تأثيرٌ كبير في تكوين شخصيّته العلميّة ونشأته الفكريّة، وبذلك تجدنا ونحن نحاول أن نلمّ إلمامة سريعة بنشأة شيخنا المظفّر الفكريّة، والإصلاحيّة، نضطرّ أن نبحث عن البيئة النجفيّة، ونتحدّث بشيء من التفصيل عن هذا المحيط الذي ظلّ محافظاً على طابعه ومكانته العلميّة والدينيّة منذ قرابة ألف عام.

مدرسة النجف الأشرف

تعتبر النجف منذ عهد طويل يناهز الألف عام معهداً للدراسات الإسلاميّة العالية في حقول الفقه والأُصول والتفسير

والفلسفة الإسلاميّة وما يتّصل بذلك من شؤون العقيدة والفكر الإسلامي. وقد هاجر إليها شيخ الطائفة أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي عام 448 هجريّة على أثر محنة معروفة امتحن اللّه بها هذا الشيخ العظيم.

وتحمّل الشيخ هذه المحنة وأمثالها برحابة صدر وسِعَة صبر إيماناً منه بأنّ القيام بمثل هذه الرسالة لا يتمّ من غير هذه التضحيات الجسام.

فلم تفتّ هذه المحنة في عضد شيخنا الطوسي ولم ينسحب من ميدان العمل بعد أن تطاول عليه ألسُن وظهرت الشيخوخة على قسمات وجهه الكريم.

واستقرّ رأيه على أن ينتقل من بغداد إلى النجف مرقد الإمام علي ليجدّد نشاطه الإسلامي والتثقيفي، بعيداً عن الغوغائيّة التي كادَت أن تقضي على ذلك البناء الشامخ الذي أقامه شيخ الطائفة في بغداد الحاضرة الإسلاميّة الكبرى في ذلك العهد.

ولم ينتقل الشيخ الطوسي إلى مدينة الإمام عليّ حتّى التفّت حوله هالة مباركة من طلبة العلم والعلماء المخلصين، فوضع بيديه الكريمتين الحجر الأساس لهذا البناء الشامخ في هذه المدينة المقدّسة.

وأخذ يؤمّ النجف من حينه عددٌ كبير من روّاد العلم والفضيلة يقطعون إليها المسافات الشاقّة الطويلة لينهلوا من

نميره العذب وليتزوّدوا بزاد العلم والمعرفة، ثمّ يعودوا فينتشروا في أطراف البلاد الإسلاميّة لينشروا هذه الأفكار والمعارف التي تزوّدوا بها ووعوها.

ولذلك انتشرت حلقات الدرس والبحث منذ ذلك الحين في هذه المدينة الكريمة وتفرّغ العلماء والباحثون للبحث والتحقيق في شؤون الفكر الإسلامي وتظافرت جهود مباركة في هذا المجال وتشعّبت الدراسة إلى مختلف حقول المعرفة ممّا صحّ معه أن تطلق على هذه المدرسة اسم «الجامعة النجفيّة».

وممّا يذكر أنّ الدراسة في النجف لا تقتصر على المستوى الابتدائي، الذي يهمّ الطالب في الدور الأوّل من حياته الدراسيّة.

ولا يكتفي الطالب النجفي عادةً بما يُلقى عليه في هذا الدور ولا الدور المتوسّط من حياته الدراسيّة، من غير أن ينتهي إلى الدور العالي من المعرفة، حيث يتاح له أن يبحث الموضوع من جديد، وينقد الفكرة التي تلقى إليه، أو التي يلقيها على طلّابه، في جوٍّ مشبع بالحريّة الفكريّة.

وما أيسر أن يجد الإنسان في هذه الحلقات المتواضعة التي تُعقَد في الجامع الهندي أو جامع الشيخ الأنصاري هذا الأُستاذ الذي يتعرّض بوقار وتوأدة لرأي للعلّامة الحِلّي مثلاً في الفقه أو لرأي للشيخ الأنصاري في الأُصول، ويناقشه مناقشة موضوعيّة هادئة... وذلك الأُستاذ الذي يتعرّض لرأي

الجرجاني في مسألة بيانيّة، وينتقده بعنف أو برفق، ثمّ يعرض لطلّابه رأيه الخاص في المسألة.

وما أكثر ما نجد الطلّاب يتعرّضون لشيوخهم فيما يبدو لهم من رأي عرضاً رفيقاً أو عنيفاً، وما أكثر ما يخرج هذا النقاش عن شكله الهادئ الذي ابتدأ به إلى نقاش عنيف حادّ حتّى يتّفقوا أخيراً على وجه من الرأي أو يلتجأ أحدهم إلى أن ينزل عند رأي الآخر.

وبجانب هذا العمق من البحث يتوسّع الطالب النجفي في الدراسة قبل أن يدخل دور التخصّص من حياته الدراسيّة.

وأهمّ الفروع التي يعتاد الطالب النجفي أن يلمّ بها إلمامة قصيرة أو طويلة هو الفقه وأُصوله والتفسير وأُصوله والحديث وأُصوله من الشريعة، والنحو والصرف والبلاغة والعروض واللّغة من الأدب، والرياضيّات، والمنطق والفلسفة والكلام من العلوم العقليّة، ومبادئ من علم الطبيعة والفلك، وما إلى ذلك.

مراحل الدراسة في مدرسة النجف

تتمّ الدراسة في النجف، على ثلاث مراحل:

1 ـ دراسة المقدّمات، وتقوم مقام (الدور الابتدائي).

2 ـ دراسة السطوح، وتقوم مقام الدور المتوسّط (الإعدادي).

3 ـ دراسة الخارج، وتقوم مقام الدراسات العالية.

ويقتصر الطالب في الدور الأوّل على دراسة الأدب والمنطق. فيدرس من الأدب النحو والصرف والعلوم البلاغيّة والعروض وبعض النصوص الأدبيّة.

ومن المنطق يتعاطى (الشمسيّة) وبعض شروح التهذيب وعلم (المنطق) لشيخنا المترحّم له الشيخ محمّد رضا المظفّر.

ويمتاز الطالب النجفي باهتمامه البالغ بآداب اللّغة العربيّة في هذا الدور من حياته الدراسيّة.

ففي النحو يدرس مثلاً (مغني اللّبيب) لابن هشام وشرح الشيخ الرضي على الكافية، وهو من أهمّ الموسوعات النحويّة.

وفي البلاغة يدرس مثلاً (المطول) للتفتازاني وهو من أوسع الكتب البلاغيّة المعروفة، وإذا علمنا أنّ اللّغة العربيّة لم تلق من الإعراض والإهمال في تاريخها الطويل ما لاقتهُ في القرون المتأخّرة، قبل عصر النهضة، عرفنا بعض ما أسدَتهُ مدرسة النجف الأشرف إلى لغة القرآن الكريم.

و(في الدور الثاني) يتفرّغ الطالب لدراسة الكتب الفقهيّة والأُصوليّة والفلسفيّة. وأُسلوب الدراسة المتعارف في هذا الدور هو أن يتّفق الشيخ والطلّاب على كتاب خاص، ممّا يتعاطاه الطلّاب عادةً في هذا الدور من حياتهم الدراسيّة. فيقرأ الشيخ مقطعاً من الكتاب ثمّ يشرح الموضوع بما يزيل عنه الغموض والإبهام، ثمّ يستعرض بعض النقود التي ترِد عليه، والتي تضجّ بها حواشي الكتاب في الغالب، ويحدّد موقفه من

جميع ذلك، ويستمع بعد ذلك لما يثيره الطلّاب من تعليقات، فيصحّح آراءهم، إذا كانت بحاجة إلى التصحيح، أو يتنازل عند رأيهم، إذا كانت جديرة بذلك.

وفي هذا الدور يقرأ الطالب من الفقه الاستدلالي عادةً شرح اللُّمعة الدمشقيّة للشهيد الثاني والمكاسب للشيخ الأنصاري، ويقرأ من الأُصول كتاب (معالم الدِّين)، والقوانين المحكمة، (سابقاً) ثمّ شاعت أخيراً دراسة (أُصول الفقه) لفقيدنا الشيخ محمّد رضا المظفّر عوضاً عن هذا الكتاب. وبعد ذلك يأخذ الطالب بدراسة (الرسائل) للشيخ الأنصاري، وهو يشتمل على مباحث القطع والظّن والأُصول العمليّة والتعادل والتراجيح. ويعتبر كتاب الرسائل مثالاً رائعاً لما توصّل إليه الفكر النجفي في دراساته لُاصول الفقه، وتجربة ناجحة في تجديد مناهج البحث الُاصولي وفتحاً علميّاً في هذا المجال من الفكر الإسلامي.

وقد لا يجد الباحث الفقيه مثل هذا التطوّر في المنهج والتجديد في الصياغة بمجال الدراسات الُاصوليّة في غير المدرسة النجفيّة. ونحن نود أن تلاحظ هذه التجربة الفكريّة الضخمة التي تمخّضت عنها مدرسة النجف الُاصوليّة من قِبل فقهاء المسلمين من المدارس الُاخرى وفقهاء القانون على اختلاف مدارسهم القانونيّة بعين الاعتبار، ليتاح لنا أن نسهم جميعاً في تجديد مناهج البحث الُاصولي. ونحيل الباحث

الفقيه إلى استعراض هذا الكتاب استعراضاً عامّاً ليلمس فيه الخطوط البارزة لتطوّر البحث الُاصولي وتجديد مبانيه في المدرسة النجفيّة، كما ألمحنا إليه.

وممّا ينبغي أن نشير إليه هنا أنّ المدرسة النجفيّة لم تقف بعد ذلك عن التطوّر في هذا الحقل من حقول الفكر الإسلامي ولم يقف الباحثون بعد الشيخ الأنصاري عن محاولات تجديديّة في هذا الباب.

ويقرأ الطالب بعد ذلك (كفاية الأُصول) للمحقّق الخراساني، وهو كتابٌ يجمع بين سعة البحث وعمق النظرة وإيجاز التعبير، ويعتبر اليوم مدار البحث والتعليق والنظر في المدرسة النجفيّة المعاصرة.

وينتقل الطالب بعد ذلك إلى الدور الأخير من حياته الدراسيّة بعد أن وقف على هذه الآفاق الرحبة من الفكر الإسلامي.

وفي هذا الدور ينتقل إلى الدراسة الخارجيّة. وفيه تقع مهمّة التحضير والإعداد على الطالب نفسه، من غير أن يتقيّد بمصدر علمي خاص، فيقوم الطالب بنفسه قبل أن يحضر المحاضرة بإعداد مادّة المحاضرة من فقه أو أُصول أو تفسير، ثمّ مراجعة أقوال العلماء في هذه المادّة وما يمكن أن يصلح دليلاً لها وما يمكن أن يناقش به هذا الدليل، ثمّ يحاول الطالب أن يستخلص لنفسه رأياً خاصّاً في هذه المسألة.

فإذا فرغ من هذا الإعداد حضر البحث الخارجي ليستمع إلى توجيهات الأُستاذ في دراسة المادّة المتّفق عليها، والبحث عن أطرافها وعمّا يتّصل بها، وما يمكن أن يصلح دليلاً لها، وما يناقش به، رأي الأُستاذ في نهاية المطاف.

ويختلف الأُستاذ كثيراً عن طلّابه في صياغة الدليل وإعداد البحث ومناقشة الآراء، والرأي الذي يتبنّاه في المسألة.

فيتعرّض الطالب لمناقشة الأُستاذ فيما يختلفان فيه من وجوه الرأي والبحث، بعد أن كوّن لنفسه رأياً في المسألة. وقد يتّفق أن يشتدّ الخلاف بين الشيخ وطلّابه في حلقة البحث، فيتبلور لدى الشيخ الوجه الآخر من الرأي فينزل عند آراء الطلّاب ولا يفقد هذا اللّون من المناقشة الأُستاذ وقاره الخاص. وقد اعتاد الأساتذة في المدرسة النجفيّة على أن يجمعوا بين وقار الشيخوخة وإنصاف الحقّ حيثما كان.

ومن ذلك يظهر أنّ الدراسة الخارجيّة في النجف الأشرف نحو من الإشراف والتوجيه في البحث، يقوم به أساتذة متضلّعون في البحث، مارسوا التدريس والبحث والنظر كثيراً، وعُرِفوا بإصابة الفكرة وعمق النظرة، ودقّة الالتفاتة، وسعة الإحاطة.

وتتّسع حلقات الدرس الخارجي تبعاً لشهرة الأُستاذ العلميّة ومدى نجاحه في البيان وطريقة العرض، ويتّفق أن يحضر حلقة من هذه الحلقات أكثر من ألف طالب. وقد كان

يحضر درس المحقّق الخراساني مؤلّف (كفاية الأُصول) ـ كما يُنقَل ـ أكثر من ثلاثمائة مجتهد وأكثر من ألفي طالب بين مراهق ومجتهد.

ويستمرّ الطالب على هذا النمط الخاص من الدراسة في الفقه والأُصول والتفسير حتّى يبلغ مرحلة الاجتهاد في الوقت الذي يقوم به أيضاً بإدارة حلقات دراسيّة خاصّة من (الدور الإعدادي).

وعندما يبلغ الطالب مرحلة الاجتهاد، ويطمئن الأُستاذ إليه في البحث والاستنباط وصياغة الدليل والجمع بين الأحاديث ووجوه الرأي ومناقشة الأقوال... يشهد له (بالاجتهاد) فيستقلّ الطالب، بعد أن قطع هذه المرحلة الطويلة التي تستغرق أكثر من ربع قرن... بالاجتهاد وإبداء الرأي والتوجيه.

وخلال هذه الأدوار الثلاثة يتعاطى الطالب أطرافاً من الثقافات الأُخرى، التي لا تتّصل برسالته في الصميم، كما لا تكون غريبة كذلك عن حقوق اختصاصه كالرياضيّات والهندسة والجبر والفلك والنجوم والعروض واللّغة الأجنبيّة.

والملاحظ أنّ الدراسة في هذه الحقول، وإن كانت خارجة عن صميم الدراسة الحقيقيّة ورسالة الطالب النجفي، ودون المستوى النهائي، إلّا أنّها لا تفقد العمق والدقّة المتعارفة في الدراسات النجفيّة.

شخصيّة الطالب النجفي

وللطالب النجفي شخصيّة فذّة تميّزه عن أقرانه في سائر المدارس والمراكز العلميّة، وتمتدّ سمات هذه الشخصيّة في حياته الفكريّة والماديّة وتطبع آثاره وأعماله في مجالات الحياة المختلفة داخل النجف وخارجها بطابعها الخاص.

ولا يسع الباحث عن الجامعة النجفيّة، وشخصيّة الطالب النجفي، وموقع النجف من المدارس الإسلاميّة العالية، وموقعها من قلوب المؤمنين الذين يتوجّهون بآمالهم وأمانيهم إليها... من غير أن يبحث عن هذه السّمات والخصائص، التي تكوّن شخصيّة الطالب النجفي، وتميّزه عن أقرانه في المدارس العالية في العالم.

و يمكننا ـ ونحن بصدد البحث عن شخصيّة الطالب النجفي ـ أن نعرض بعض ملامح هذه الشخصيّة والعوامل الفكريّة والماديّة التي كوّنتها وهي:

1 ـ الاستقلالية:

لم يتعوّد الطالب النجفي أن ينطوي في إطار سياسي، مهما كان شكل هذا الإطار، ومهما كانت الظروف السياسيّة، ولم يعهد التاريخ الإسلامي منذ ألف سنة أن يذوب الكيان النجفي في كيان سياسي لا إسلامي، مهما كان نوع هذا الكيان، ومهما كانت الملابسات الاجتماعيّة.

وظلّت مدرسة النجف الإسلاميّة تحتفظ بشخصيّتها الإسلاميّة الفذّة في خضمّ الأحداث السياسيّة التي مرّت على الوطن الإسلامي، وفيما تجدّد في البلدان الإسلاميّة من تيّارات سياسيّة وعقائديّة.

ولعلّنا نلمس في رسالة النجف الأشرف تفسيراً لاستقلال الشخصيّة النجفيّة، فالجامعة النجفيّة ترى أنّ التشريع الوحيد الذي ينبغي أن تقوم عليه الحياة في كلّ مجالاتها هو التشريع الإسلامي في الوقت الذي ترى أنّ السياسات القائمة خليط من تشريع إسلامي وغيره، أو من غيره خالصاً، فالخضوع إليها والأخذ بمتطلّباتها فيه شيء من البُعد عن الأخذ بالإسلام كدين إلهي، وهذه الحركيّة الاجتماعيّة والفكريّة الحسّاسة تقتضي مثل هذه الاستقلاليّة في شخصيّة الطالب النجفي والمدرسة النجفيّة. ولم يكن ليتأتّى للنجف الأشرف أن تحتفظ بشخصيّتها الرساليّة، وتؤدّي واجبها الديني إلّا بهذا النحو من المحافظة والاستقلال.

وقد يبدو للبعض، في ضوء ما تقدّم، أنّ الجامعة النجفيّة محافظة في سيرها وأفكارها، ولكن الباحث المنصف لا يشكّ في أنّ الوضع الفكري الاجتماعي في النجف أقرب إلى (الاستقلاليّة) منه إلى (المحافظة).

ولهذه الظاهرة سمات بارزة في حياة (الجامعة) الاجتماعيّة والفكريّة، فالزعامة الإسلاميّة في الفتيا والتدريس

والإدارة في النجف الأشرف لا ترتبط بأيّ جهة سياسيّة، مهما كان شكلها. وإمكانيّات الفقيه الشخصيّة من فكريّة وقياديّة هي التي تخوّله تسنّم هذه المكانة الرفيعة من الحوزة والوطن الإسلامي. ولعلّ في اشتراط (العدالة) و(الأعلميّة) في مرجع التقليد والفتوى ما يسلّط بعض الأضواء على هذه المسألة.

و ممّا يؤكّد ما ذكرنا من استقلاليّة الجامعة النجفيّة عدم اتّصالها في الجانب المادّي من حياتها بأيّة جهة رسميّة أو مورد سياسي.

و تتمّ إدارة (الحوزة) الماليّة عن طريق التبرّعات والفرائض الماليّة التي يدفعها المؤمنون إلى العلماء من مختلف الأقطار الإسلاميّة والبلاد التي تموّن النجف بالمال الكافي هي إيران والعراق والهند وأفغانستان وبلدان الخليج وأفريقيا الشرقيّة وبرما وسوريا ولبنان وأقطار إسلاميّة أُخرى.

وقد كان يبلغ وارد السيّد أبو الحسن الأصفهاني في بعض السنوات ستّمائة ألف دينار[1] وهو مبلغ ضخم إذا قيس إلى تكاليف المعيشة في ذلك الوقت.

وكان الملك عبد اللّه، ملك الأردن في وقته يقول: إنّ وارد السيّد المذكور يزيد على وارد بعض الدول[2].

---

(1) الإمام السيّد أبو الحسن: ص60.

(2) المصدر نفسه.

وكان صالح جبر، السياسي العراقي، أيّام الحكم الملكي يرى أن يربط النجف بمديريّة الأوقاف العراقيّة لتكون كسائر المدارس والمراكز الإسلاميّة في العراق، فلم يقتنع السيّد أبو الحسن الأصفهاني برأيه، وبقى يصرّ على ضرورة استقلال النجف في الجانب المادّي من حياتها.

وممّا ينبغي أن نشير إليه في هذا المجال، إنّ هذه الظاهرة ظاهرة الاستقلال في الزعامة والمال، تشمل جميع المراكز الإسلاميّة الشيعيّة، كالجامعة العلميّة الكبرى في قم والجامعة العلميّة في خراسان وأصفهان وكربلاء والهند وأفغانستان، ولا تخصّ النجف الأشرف.

وممّا يؤخذ على الأزهر الشريف وغيرها من الجامعات الإسلاميّة، أنّها ترتبط بالجهات السياسيّة في الزعامة والمال، وهذا الارتباط بطبيعة ما ينجم عنه من نتائج غير مرضية، ولو أحياناً يفقد المركز الديني استقلاله الفكري وموقعه من نفوس الناس.

ولا ننكر أنّ الوارد المالي الضخم الذي يرد الدولة عن طريق الأوقاف العامّة هو حقٌّ طبيعي للمراكز الدينيّة، إذا كانت المراكز الدينيّة هي التي تباشر مهمّة الجباية والصرف، أمّا إذا وضعت الدولة يدها على هذه الموارد وخرج الأمر عن حوزة المراكز الدينيّة، فليس ممّا يلائم موقع الحوزة أن ترتبط بها بنحو من الأنحاء.

2 ـ التعميق والنظر:

والطالب النجفي لا يؤمن بمبدأ الدرس للامتحان، ويعتقد بأنّ الدرس ينبغي أن يكون للدرس فقط، ولما يتوخّاه الطالب من رسالة فيما وراء الحياة الدراسيّة.

وطبيعة الامتحانات تتطلّب من الطالب الاهتمام بتحضير المادّة الدراسيّة التي تلقى عليه، أكثر من الاهتمام بالنظر في المادّة الدراسيّة التي يتعاطاها الطالب، والتعمّق في صياغة البحث من الخارج، وتحليل المحتوى من رأي أو فكرة من الداخل.

ومهما قيل في ضرورة الامتحان فمّما لا نشك فيه أنّ الامتحان يعوّد الطالب على الحفظ والإعداد، أكثر ممّا يعوّده على التفكير والتعمّق، وأنّ الدراسة الحرّة تدرّب الطالب على التفكير المعمّق والنظر فيما يلقى عليه من مادّة أكثر ممّا يدرّبه على الحفظ، وبهذا الشكل تتغلغل هذه الظاهرة الفكريّة في حياة الطالب النجفي الدراسيّة، ويتعوّد النظر والتفكير فيما يلقى عليه من مادّة منذ نشأته الدراسيّة الأُولى.

وعندما يفتح الطالب عينيه لأوّل مرّة على كتاب الأمثلة وهو رسالة صغيرة في الاشتقاق يبتدئ به الطالب النجفي حياته الدراسيّة ـ يواجه هذه الجملة: اعلم رعاك اللّه. فيدعو الأُستاذ الطالب أن يسأل نفسه لماذا ابتدأ المصنّف الكتاب بقوله: اعلم دون أن يقول: اقرأ، فيُجيب الأُستاذ عنه، بعد أن يعجز

الطالب عن الإجابة، طبعاً، بأنّ الغرض من الدراسة ليس هو القراءة والحفظ، بل النظر والفهم.

وهكذا يتدرّج الطالب الناشئ منذ أولى خطواته في هذه الحياة الجديدة على النظر والتفكير والمناقشة والنقد الذي قد يبلغ حدود العنف، ويخرج عن حدّ الرّفق واللّين.

ويكفي أن يحضر الباحث حلقة من حلقات التدريس في النجف وما يثار فيها من نقد ونقاش، أو يقرأ كتاباً من الكتب الدراسيّة وما يحتويه من التعليقات والنقود والمناقشات والتأمّلات وما يتضمّنه من الإيرادات التي يسبق المؤلّف القارئ في الإشارة إليها بطريقة (الفناقيل)[1] في متن الكتاب، والتأمّلات التي يدعو المؤلّف الطالب إليها بقوله: (فتدبّر) أو (فتأمّل) والتهويلات التي يوزّعها بين ذلك كلّه كقوله: (فتأمّل فإنّه من مزالّ الأقدام) وما شاكل ذلك من الظواهر التي تدلّ على توفّر العمق والدقّة والنظر في الدراسة النجفيّة. فيكفي أن يتأمّل الباحث في شيء من هذه الظواهر التي تشيع في جوّ الدراسة النجفيّة ليلمس مدى التعمّق والدقّة في الدراسة بهذه الجامعة.

وبما أنّ هذا الجانب من حياة الطالب الفكريّة بعيد الأثر في تكوين الشخصيّة النجفيّة... نحاول أن نلتمس مع القارئ

(1) مأخوذة من قولهم: فإن قلت. قلت.

الجذور الأُولى لهذه الظاهرة في حياة الطالب النجفي، والظلال التي تلقيه على شخصيّة هذا الطالب في مجال الدراسة والعمل، داخل النجف وخارجها. ولا يتّسع صدر البحث، كما لا يتّسع صدر القارئ الكريم، فيما أظنّ للتعرّف على جميع هذه العوامل والأسباب التي تدخل في تكوين الشخصيّة النجفيّة، ولذلك فسوف نحاول في هذا الحديث أن نقتصر على دراسة العوامل البارزة لهذه الظاهرة واحداً بعد آخر.

وفيما يبدو لي تندرج هذه العوامل في الظواهر التالية:

أ ـ رسالة الطالب النجفي:

والرسالة التي يحملها الطالب النجفي تحدّد بطبيعة الأمر شكل الدراسة. ولو كان هناك من الطلّاب خارج المدرسة النجفيّة من يتوخّى الوظيفة من وراء الدراسة، فإنّ الطالب النجفي لا يتوخّى من وراء الدراسة أيّة وظيفة اجتماعيّة خارج حدود رسالته الدينيّة، والطالب الذي يجعل الوظيفة (أمام عينيه) منذ أوّل خطواته الدراسيّة لا يكاد يهمّه بالطبع من الدراسة غير الحصول على هذه القصاصة المبتذلة من الورق التي تدفعه إليه الحكومة، والتي تُتيح له مورداً ماليّاً طيّباً، ويحاول أن يبلغ هذه الغاية من أقصر طريق.

ولا يكاد يهمّ الطالب النجفي لطبيعة الرسالة التي يحملها

شيءٌ من ذلك، ولذلك فهو لا يحاول أن يقطع الطريق كيفما اتّفق وكيفما يتاح له الحصول على هذه القصاصة، بل التفكير العلمي والنظرة المعمّقة هما رائدا الطالب النجفي في هذا الدور من حياته، وأداته الوحيدة في قطع هذه المسافة.

ب ـ طبيعة الدراسات النجفية:

وطبيعة الدراسات العالية في النجف كالفقه والأُصول والتفسير والفلسفة تتقبّل مثل هذه الدقّة والتعمّق في البحث، والنتائج التي يصل إليها الباحث في هذه الحقوق من المعرفة لا تتنافى مع التشكيك والتطوير.

وعلى النقيض من نتائج الدراسات الرياضيّة والطبيعيّة التي لا تقبل النقاش والجدال ولا تتحمّل التشكيك لثبوتها نجد أنّ الدراسات الفقهيّة والاُصوليّة والفلسفيّة تتقبّل مثل هذا التشكيك والنقد وتتوسّع مع الدراسات والأبحاث. ولنضرب على ذلك أمثلة عن الفلسفة والأُصول:

كانت المدرسة النجفيّة قبل هذا الوقت تتبنّى فكرة أصالة الماهيّة، وبعد ذلك تبنّت فكرة أصالة الوجود، وكانت لا تميّز بين الأمارات والأُصول، فأصبحت تفرّق بينها بعد ذلك، وكانت نظريّة انسداد باب العلم تجد مجالها في البحث كمسألة ذات واقع ثمّ انحسرت بعد ذلك حيث أصبح الباحثون جميعاً يؤمنون بانفتاح باب العلم، وكذلك تعرض المسألة الواحدة لعدّة نتائج مختلفة في فترة زمنيّة قصيرة.

وما أيسر أن يجد الباحث في أُصول الفقه رأياً للشيخ الأنصاري وتعقيباً عليه للمحقّق العراقي أو النائيني وملاحظةً على التعليق لباحث من المعاصرين ورأياً في الملاحظة لآخر منهم.

وهذا الاحتكاك الذهني الذي يشبه التضارب الفكري بين الباحثين يؤدّي إلى تعميق المباحث الفقهيّة والأُصوليّة وتطوير المفاهيم العلميّة وتجديد النظر في صياغة إطار البحث.

ج ـ حريّة الاجتهاد والنظر:

وحريّة الاجتهاد هي الأُخرى من العوامل البارزة التي تدخل في تكوين الشخصيّة النجفيّة المعمّقة، فلا يكاد يقنع الفقيه النجفي بطبيعة موقفه الإيجابي من الاجتهاد بآراء الفقهاء المتقدّمين دون أن يحاول أن يجدّد النظر في محتواه الداخلي من حيث الفكرة وفي إطاره الخارجي من حيث الصياغة، ودون أن يحاول إعادة التجربة التي عاناها السابقون عليه من الفقهاء، لعلّه يتوفّق إلى رأي أو نظرة جديدة، فيكون قد أدّى ما عليه وفرغ من عهدة التكليف ببذل كلّ ما في طاقته من وسع.

ولا يتأتّى للفقه الإسلامي أن يواكب حاجات الإنسان في مختلف ظروفه الفرديّة والاجتماعيّة إذا أغفلنا عنصر التطوير في هذا التشريع[1].

(1) راجع: المدخل إلى دراسة التشريع الإسلامي، محمّد مهدي الآصفي.

والجمود في الاجتهاد على وضعيّة اجتماعيّة خاصّة يفقد الفقه الإسلامي أكبر ميزاته التشريعيّة، والاجتهاد في المذهب لا يختلف عن الاقتصار على النصوص الفقهيّة في شيء. وما لم يطلق الفقه من قيد حصر الاجتهاد في مذهب خاص لا يتأتّى للفقه الإسلامي أن يساهم ككائن حيّ في تسيير الحياة الاجتماعيّة وتطوير الأوضاع الاجتماعيّة ومواكبة الحاجات البشريّة المتطوّرة.

والفقيه الإمامي أينما كان في النجف الأشرف، وفي جامعة قم المقدّسة، أو في أيّ جامعة دينيّة شيعيّة أُخرى.... يضطرّ بحكم موقفه الإيجابي من الاجتهاد أن يتّخذ موقفاً إيجابيّاً من الأحداث الاجتماعيّة، ويواكب الحاجات البشريّة، ويعالج قضايا الساعة، في ضوء نصوص الكتاب والسُّنة والقواعد التشريعيّة العامّة.

و إذا علمنا أنّ كثيراً من البلدان الإسلاميّة تتوجّه إلى النجف الأشرف لتعرض عليها ما يبدو لها من حاجات وما تعانيه من مشاكل وتطلب منها العلاج في ضوء تعاليم الإسلام علمنا حساسيّة موقع الفقيه من الأحداث الاجتماعيّة وقضايا اليوم. وكلّ ذلك يتطلّب من الفقيه الإمامي أن يتطوّر مع الأحداث ويبلور عناصر التطوير والتجديد في التشريع الإسلامي، ليعرض النظريّة الإسلاميّة بوضوح في الاتّجاهات الفكريّة والمادّية الجديدة على صعيد النظريّات الاُخرى، أو على صعيد أسمى من ذلك.

وكلّ ذلك يعوّد الفقيه على ممارسة النظر والتفكير المستمرّ، والتعمّق والدقّة المتناهية في الاجتهاد والتفكير.

وبهذه المناسبة نقترح على اخواننا من السُّنة، بإخلاص وتواضع، أن ينظروا إلى مسألة الاجتهاد نظرة جدّية، ويدفعوا التشريع الإسلامي إلى مستوى الأحداث وقضايا اليوم.

ونعرض عليهم بهذه المناسبة التجربة الشيعيّة الضخمة في مجالي الفقه والأُصول، لنتّفق معاً على منهج واحد في الاجتهاد في حدود مصادر التشريع الإسلامي الأصيلة.

د ـ طبيعة دراسة الحلقات:

هذا الشكل من الدراسة بطبيعته يستدعي تعمّقاً أكثر في البحث، وحريّة أكبر في الرأي، ولا سيّما في حقل دراسة البحث الخارجي.

والطابع العام لهذه الحلقات هو الحريّة الكاملة في الرأي والتعبير. ومن حقّ الطالب أن يقطع على الأُستاذ المحاضر درسه ويناقشه في آرائه، ولا يجد الأُستاذ مهما بلغت شهرته العلميّة حَرَجاً في نفسه أن ينزل عند رأي الطالب إذا كان يجد الحقّ في جانبه.

وقد يتفاقم الخلاف بين الأُستاذ والطلّاب وبين الطلّاب أنفسهم، ويخرج أمر الدرس عن كف الأُستاذ، وتتعالى الأصوات، ويشتدّ الخلاف بين الطلّاب، وينفضّ المجلس،

من غير أن يستطيع الأُستاذ أن يسترجع زمام المجلس.

و إذا علمنا أنّ من الطلّاب الذين يحضرون حلقات الدرس الخارجي في كثير من الأحيان مجتهدين كباراً، يشار إليهم بالفضيلة، في كثير من الأحوال، عرفنا مدى تأثير دراسة الحلقات بهذا الشكل من حريّة التفكير في بلورة الفكر الإسلامي، وتعميق الدراسات الإسلاميّة في مدرسة النجف الأشرف، وقد كان يحضر بحث المحقّق الخراساني ما يزيد على ثلاثمئة مجتهد، كما أسلفنا.

وما ظنّك بدرس يجمع هذا العدد الضخم من المجتهدين والباحثين وبما يُثار في هذا المجلس من نقاش، وبما يرتفع من كلام، حتّى كان الطالب يضطرّ أن يقوم في بعض الأحيان على رجليه، حينما يلاقي إعراضاً من الأُستاذ الشيخ في الإصغاء إليه، ليقهر الأُستاذ على الالتفات إليه، كما ينقل عن بعضهم.

وفي مثل هذا الجوّ العامر بالبحث والتحقيق والتعميق ينشأ الطالب النجفي وتتبلور لديه مشائل الفكر الإسلامي.

ومهما حاول الباحث فلا يكاد يلقى جوّاً دراسيّاً عامراً بالحريّة الفكريّة كالأجواء الدراسيّة التي يعيشها الطالب النجفي، ومهما حاول الباحث فلا يكاد يجد قاعة للدراسة يلتقي فيه مثل هذا العدد الضخم من الباحثين والشيوخ ليبحثوا فيما بينهم شؤون الفكر بإشراف من الرئيس المعترف بفضله.

هـ ـ الأجواء النجفيّة:

للأجواء الفكريّة والاجتماعيّة التي يعيشها الطالب الديني في النجف تأثيرٌ كبير في تكوينه العلمي والفكري. ويتبيّن الباحث من خلال هذه الأجواء السِّمات البارزة لشخص الطالب النجفي.

وللأجواء النجفيّة طبيعة خاصّة، قد لا تتوفّر في غير النجف. وهي تركيب اجتماعي معقّد، تدخل في تكوينها طبيعة البيئة النجفيّة وقدسيّة المرقد العلوي وتأريخ المدرسة الطويل والحياة الفكريّة والمرجعيّة الإسلاميّة.

وقد كان لهذه الأجواء كما سنلمس ذلك خلال هذا الحديث تأثيرٌ كبير في تعميق البحث النجفي وإبعاد الضحالة والسطحيّة عن الدراسات النجفيّة، ويلمس القارئ الكريم بعض مظاهر هذه الأجواء فيما يأتي:

أوّلاً ـ المجالس النجفيّة:

وتُقام هذه المجالس في البيئة النجفيّة بصورة خاصّة، ويصحّ أن نقول إنّ شيوع المجالس الاسبوعيّة بهذا الشكل من مختصّات النجف الأشرف.

فهناك في هذه البلدة عشرات المجالس الاسبوعيّة، وقلّما يتّفق أن تتعارض هذه المجالس في أوقاتها.

وتكثر هذه المجالس في يومي الخميس والجمعة

وليلتهما، حيث تعطّل الدراسة في النجف، كما تعقد هذه المجالس في ليالي رمضان المبارك بصورة دائميّة، تستمرّ عادةً إلى ما بعد منتصف اللّيل وإلى أن يحين وقت السحر حيث يتفرّق الطلّاب لتناول وجبة السحر. وفي أيّام ذكرى وفيّات المعصومين (عليهم السلام) حيث تعطّل الدراسة في النجف فيعوّض الفراغ الدراسي بهذه الندوات.

وتزدحم جوانب هذه المجالس بالعلماء والفضلاء. ويأخذ كلّ واحد منهم من المجلس مكانه الخاص الذي تخوّله له مكانته العلميّة، ويُستَقبل كلّ واحد منهم بما يليق مكانته العلميّة. وفي هذه المجالس تُثار المسائل الفكريّة من قِبل بعض الحاضرين وتشمل عادةً مسائل الأدب والفقه والأُصول والتفسير والحديث والفلسفة. لكن الصبغة العامّة لهذه المجالس هو البحث الفقهي والاُصولي.

وبعد لأي وتفكير يتعرّض أحد الحضور للإجابة عن السؤال فيرد عليه السائل أو غيره من الحضور فيحدث الخلاف بينهم ويشترك الآخرون فيه ويحتدم النزاع، وفي أكثر الأحوال ينقسم الحضور إلى جماعات متعدّدة، تمثّل كلّ جماعة منها وجهاً من الرأي.

وفي هذا الجوّ العامر بالتفكير والتعبير والنقاش الحُرّ والاحتكاك الذهني وتضارب الآراء يتبلور الوجه الحقّ من الرأي وتتعادل الآراء، وتتقارب وجهات الرأي ويصحّح بعضها

بعضاً في حلبة الصراع، ويصفو الجوّ، ويقتنع الحضور بالرأي الحاسم الذي انتهوا إليه بعد هذه الجولة الفكريّة الممتعة.

ولو قدّر لهذه الظاهرة من الحياة النجفيّة أن تدرّس دراسة سيكولوجيّة لُاتيحَ لنا أن نعرف مدى تأثير هذه الاجتماعات البسيطة في تكوين الفكرة النجفيّة المعمّقة وتطوير المفاهيم الفقهيّة والُاصوليّة في هذه المدرسة.

ويكاد يزيد تأثير هذه الندوات العلميّة في تكوين الشخصيّة النجفيّة المعمّقة على تأثير طبيعة دراسة الحلقات. فالطالب مهما أُوتي من الحريّة الفكريّة، والُاستاذ مهما كان مرناً في تلقّي النقود من قِبل الطلّاب لا يكاد يتجاوز في كثير من الأحوال حدود اللّياقة ورعاية أدب الدرس. وفي هذه الندوات ترتفع هذه المحافظة ويزول هذا الالتزام. والباحث حينما يلقي وجهاً من الرأي على الحضور، لا يلقي الكلام على عواهنه، من غير أن يفكِّر بنتيجة هذا الكلام. وفيما يُثار حوله من نقد، قد يتجاوز حدود الرفق في كثير من الأحيان. وهذا الشكل من الاحتكاك والتضارب الفكري يبعث على النشاط الذهني المثمر والتعمّق في البحث.

وتاريخ هذه الندوات، وما كان يجري فيها من حديث، وما كان يُثار فيها من نقاش تاريخي للنشاط الفكري الإسلامي في النجف، فكان من أهمّ هذه المجالس في العقد السابق مجلس السيّد محمّد البغدادي، حيث كان يحضره جماعة من

العلماء والفضلاء ومن بينهم الشيخ ضياء الدِّين العراقي والشيخ محمّد النجم والشيخ محمّد تقي البروجردي والسيّد عبّاس الأصفهاني، ومجلس الشيخ محمّد رضا آل ياسين وكان يحضره المرحوم الشيخ عبّاس الرميثي والشيخ مرتضى آل ياسين، والسيّد باقر الأحسائي، ومجلس السيّد محمّد سعيد الحكيم ومجلس السيّد محمّد أمين الصافي وكان يحضره السيّد محمود الحكيم، والشيخ خضر الدجيلي، ومجلس السيّد علي شبّر وكان يحضره الشيخ كاظم الشيرازي والسيّد محمّد حسين كيشوان والسيّد حسن البجنوردي.

وقد كانت المسألة الواحدة تجرّ إلى إثارة مسائل أُخرى، أو تمتدّ إلى غير هذه الندوة وتصبح حديث الجامعة في كلّ مكان. وقد كان الخلاف الفكري يمتدّ إلى أكثر من هذا فيخصّها الباحثون بأبحاث مستقلّة تتلقّفها الأيدي بشوق وارتياح.

و ممّا يحكى أنّه لمّا قدم السيّد الصدر إلى النجف أثار في بعض ندواتها المسألة العبائيّة المعروفة، واختلفت كلمات الحضور حولها وامتدّ ظلال الخلاف إلى الندوات الاُخرى، وأصبحت في فترة وجيزة حديث الندوات النجفيّة وتناولها جمعٌ من المؤلّفين برسائل مستقلّة وأدرجها آخرون ضمن الأبحاث الاُصوليّة.

وقد كان هذا الطابع الفكري ينعكس على سائر المجالس

والندوات النجفيّة، حتّى إذا كانت تُعقَد لأغراض العزاء أو الأفراح أو الاستقبال أو الزيارة.

وكان الطالب النجفي لا يترك فرصة تمرّ عليه من غير أن يستغلّها في إثارة شيء من المسائل التي كانت تمرّ عليه في حياته الدراسيّة والتي كانت تشغل بالَهُ أكثر من أيّ شيء آخر.

ثانياً ـ المراجعة والبحث:

من عادة الطالب النجفي أن يراجع ما يلقى عليه من مادّة دراسيّة يوميّاً مع زملائه في ساعة خاصّة ليلقي عليها نظرة ثالثة، بعد أن أنهى تحضيره قبل الدرس وتلقّى خطوطه الرئيسيّة من الُاستاذ حين الدرس. وفي هذه المرّة يتاح للطالب أن يلقي من جديد نظرة على الموضوع ويسلّط أضواء جديدة على خطوط البحث ولو كانت هيمنة الُاستاذ الفكريّة تمنعه في مجلس الدرس عن الانطلاق الواسع في البحث، وتسدّ عليه منافذ التشكيك غالباً. فإنّ الطالب يجد من مثل هذه الاجتماعات البحثيّة الخاصّة منطلقاً واسعاً للنقاش والنقد، ولا يجد في زميله الذي يشترك معه في المراجعة مثل هذه الهيمنة الفكريّة. وبهذه الصورة تعتبر هذه الاجتماعات الخاصّة ذات أثر فعّال في تنمية المواهب البحثيّة في الطالب النجفي. وقلّما يتّفق أن يحضر الطالب النجفي درساً، من غير أن يراجعه مع زميل له بعد الدرس. وقد يتّفق أن يراجع الطالب الدرس مع زملائه أكثر من مرّة. وشاع بينهم: (إنّ الدرس حرف والتكرار ألف).

وتتجاوز هذه الظاهرة الثقافيّة الطلّاب إلى العلماء المتفرّغين عن الدراسة، فيتّفق العلماء فيما بينهم يوميّاً على عقد اجتماعات خاصّة لمراجعة البحوث الفقهيّة والُاصوليّة والتفسير، بالإضافة إلى مشاغلهم الفكريّة الُاخرى من تدريس وتأليف وإفتاء.

ثالثاً ـ مداولة النظريّات على القمّة:

لا تقتصر المداولة والنقاش في الحوزة على هذا الصعيد العام، وفيما بين الطلّاب أنفسهم أو فيما بين المتفرّغين، أو بين الطلّاب وشيوخهم. فقد يعرض المرجع الدراسي الكبير لطلّابه رأياً خاصّاً له في مسألة من مسائل الفقه والُاصول، ويتلقّاه الطلّاب عنه بعد نقاش وخلاف يطول أكثر من اسبوع، ويعرض مرجع آخر من مراجع التدريس رأياً آخر لطلّابه، يختلف مع النظريّة الأُولى ويتلقّاه عنه طلّابه بعد نقاش وكلام، وتتبلور النظريّة في كلّ من الجانبين على هذا المستوى الرفيع، فيقوم الطلّاب بدور حلقة الوصل في هذه المواقع فينقلون احتجاج كلّ من الجانبين إلى الآخر مع المحافظة على اسم الطرف الآخر، ويُثار النقاش في الحوزة حينئذ على القمّة.

فقد يهون على الُاستاذ أن يقنع طلّابه باتّجاهه الفكري الخاص ويدحض حججهم، ولكن الخلاف عندما يُثار على هذا المستوى بين المراجع أنفسهم، بصورة غير مباشرة، يتّخذ شكلاً آخر، ويتطلّب كثيراً من الإناة والتفكير والتعميق في البحث.

وقد كان الخلاف في العقد السابق من هذا القرن قائماً على قدم وساق في الأبحاث الُاصوليّة بين المراجع الثلاث للتدريس في الحوزة، وهم: الشيخ ضياء الدِّين العراقي، والميرزا محمّد حسين النائيني، والشيخ محمّد حسين الأصفهاني.

وكان هذا الخلاف يتمخّض في غالب الأحوال عن نظريّات جديدة في الفقه والُاصول واتّجاهات حديثة في الاجتهاد. ويجد الباحث ظلالاً من هذه الخلافات فيما خلفوه لنا من تراث فكري ضخم في الفقه والأُصول، ولا سيما في الأثر الذي خلّفه هؤلاء الثلاثة في الأُصول من كتاباتهم الخاصّة أو تقرير تلامذتهم.

فقد قام كلّ من السيّد الخوئي والشيخ محمّد علي الكاظمي رحمهما اللّه بتقرير أبحاث الميرزا محمّد حسين النائيني في كتابيهما (أجود التقريرات) و(فوائد الأُصول). وخلّف الشيخ ضياء الدِّين العراقي كتاباً ضخماً في الأُصول بعنوان (المقالات). وصدر الشيخ محمّد تقي البروجردي تقريراً لأبحاث الشيخ ضياء الدِّين العراقي باسم (نهاية الأفكار). وحرّر الشيخ محمّد حسين الأصفهاني آراءه في الأُصول بصورة تعليقات على كتاب (كفاية الأُصول) للمحقّق الخراساني، وكتب الفقيد الشيخ محمّد رضا المظفّر رحمه اللّه تقريراً عن آرائه في الأُصول.

وفي هذا الانتاج الفكري الضخم يلمس الباحث وجوهاً

من النشاط والنقاش المثمر والخلاف البنّاء، الذي كان يجري يومذاك في الحوزة بين أقطاب الدراسة، وعلى القمّة من المدرسة النجفيّة.

رابعاً ـ مجالس الإفتاء:

وهذه المجالس تشكِّل جانباً آخر من الأجواء النجفيّة، ولم يعهد التاريخ النجفي مثل هذه المجالس، بشكله الحاضر في ما قبل هذا القرن. ويظهر أنّ الميرزا محمّد حسين النائيني رحمه اللّه كان هو أوّل من ابتدع هذه المجالس. والغرض من إقامة هذه المجالس هو الإجابة على الاستفتاءات والأسئلة الشرعيّة التي ترِد النجف من الأقطار الإسلاميّة، فيما يتّصل بشؤون المسلمين الدينيّة.

ويحضر المجلس عادةً المرجع الديني، وجمعٌ من العلماء والباحثين، وتُعرَض الأسئلة على الحضور، بمسمع من المرجع الديني، فيُثار الخلاف. والمرجع الديني يلحظ كلّ ذلك من قريب، ويصغي لما يدور في المجلس من حديث، ويستقرّ رأيه أخيراً، من خلال ما يجري في المجلس من حديث ونقد، ومن خلال تجاربه الفكريّة الخاصّة... على رأي، فيفتي بذلك، ويحسم الخلاف ليأتي دور سؤال جديد.

ويجري النقاش في هذه الندوات بإشراف المرجع الكبير الذي يحضر الندوة عادةً، ولذلك يجري النقاش على خطوط واضحة وهادفة ومعمّقة. والأفراد الذين يحضرون هذه

المجالس نخبة من فضلاء الحوزة. ولا زالت تُعقَد هذه المجالس والندوات بصورة ليليّة، وتُعالَج فيها أهمّ قضايا الساعة على صعيد النظريّة الإسلاميّة.

و ـ الأجواء الفكرية العامّة:

والنجف الأشرف بجميع أطرافها وجوانبها مدرسة فكريّة واسعة، يضجّ أطرافها بالبحث والدرس والمراجعة والتحضير، وأكثر ما يسع الكاتب من تعبير أن يقول: إنّ الأجواء النجفيّة أجواء دراسيّة بصورة عامّة. فلا يتطلّع الإنسان إلى جامع من هذه الجوامع التي تنتشر في أرجاء هذه المدينة، حتّى يجد جماعات من الطلاب متكتّلين للمراجعة، والحلقات الدراسيّة منعقدة، والأصوات مرتفعة من هنا وهناك بالنقد والاحتجاج. ولا يرتاد الباحث ندوة من هذه الندوات الكثيرة التي تُعقد في جوانب هذه المدينة المقدّسة إلّا ويجدها زاخرة بحديث العلم، وعامرة بشؤون الفكر الإسلامي، وصاخبة بالنقاش الحادّ والاحتجاج.

ولا يخصّ حديث العلم والفكر حلقات الدرس واجتماعات المذاكرة أو ندوات الاستفتاء أو المجالس الاسبوعيّة، بل يعمّ كلّ جزء من حياة هذه المدينة، وقلّما يتّفق أن يجتمع اثنان من ذوي الفضل إلّا ويُثار بينهم نقاش في شأن من شؤون الفكر.

وقد يأوي بعضهم إلى شواطئ الكوفة كلّ اسبوع مرّة

ليروّحوا عن نفوسهم، وليأخذوا نصيبهم من الراحة، فلا يستقرّ بهم المجلس هناك، تحت ظِلال الأشجار، وعلى ضفاف نهر الفرات حتّى يأخذوا في نقاش جديد أو يستمرّوا في نقاش قديم، وينقلب الحقل إلى المدرسة، ويتحوّل الهزل إلى الجدّ.

وأينما يتوجّه الإنسان من هذه المدرسة فلا يفقد وجهاً من وجوه النشاط الفكري، فبيوت العلماء ندوات عامّة عامرة بحديث العلم والفكر، والجمعيّات العلميّة منتشرة هنا وهناك. وفي أرجاء هذه المدينة يلتقي الطالب بعشرات المكتبات التي تفتح أبوابها عليه يوميّاً لتزوّده بما يحتاج إليه من كتب ومصادر فيما يخصّه من شؤون الفكر.

وفوق ذلك كلّه فكلّ جمعيّة من جمعيّات النجف العلميّة تملك مكتبة عامرة بالموسوعات العلميّة والكتب النادرة، وكلّ مدرسة من مدارس النجف تضمّ بين جدرانها مكتبة حافلة بالكتب التي تهمّ الطالب في شؤون اختصاصه. وإلى جنب ذلك كلّه يلتقي الطالب كلّ يوم في دور الكتب بكتاب نجفيّ جديد أو بحث جديد أو رسالة جديدة في شأن من شؤون الفكر الإسلامي. وبين حين وآخر تعرض المطابع على الطالب النجفي سلسلة جديدة من الكتب أو مجلّة إسلاميّة جديدة.

والمطابع في النجف على كثرتها في عمل مستمرّ ونشاط دائم، وهي تطلب بإلحاح من الباحث النجفي توفير المادّة اللّازمة، وإعداد البحوث والرسائل والمقالات للطبع.

أمّا بعد، فهذه صورة مصغّرة للأجواء النجفيّة، وللحياة الفكريّة التي يعيشها الطالب في جوانب هذه المدرسة. ولو قدّر للباحث أن يجد أطرافاً من هذه الأجواء في غير النجف الأشرف من مدارس الفكر، فلا يكاد يلتقي بهذه الأجواء، مجموعة، في غير النجف الأشرف.

ولست بحاجة إلى أن أشير إلى تأثير مثل هذه الأجواء الفكريّة في تكوّن الفكر النجفي المعمّق، بما فيه من سعة وشمول وعمق، وبما فيه من عناصر التطوّر والاستمرار.

3 ـ الاحتكاك الفكري:

يرتاد النجف الأشرف قوميّات مختلفة، ويلتقي في معاهد هذه المدينة ونواديها البعثات العلميّة التي تقصد النجف من نقاط بعيدة من الشرق والغرب. وتحمل كلّ طائفة إلى النجف ذهنيّتها القوميّة أو القطريّة الخاصّة، وما تحمل هذه الذهنيّة من تجارب فكريّة وعادات وتقاليد، تأصّلت في أفكارهم طيلة عصور طويلة. ومن هذه التجارب التي يحملها هؤلاء إلى هذه البيئة الجديدة تجارب غنيّة بالعطاء في التفكير والتعبير والصياغة والأدب والدعوة. وتلتقي هذه الذهنيّات المختلفة وما تحمل من تجارب فكريّة على صعيد الحياة الدراسيّة في المدرسة النجفيّة، وتنسجم في حياة فكريّة مؤتلفة تجمعها وحدة الهدف ووحدة الدراسة ووحدة البيئة.

والاحتكاك الفكري الذي يحصل بين هذه الذهنيّات

المختلفة على صعيد الدراسة يفتح آفاقاً فكريّة واسعة في التفكير والصياغة والتعبير والأدب أمام الفكر النجفي، ويعوّد الطالب النجفي على المرونة في التفكير والبحث.

والنتاج الفكري الضخم في هذه المدرسة يتّصل بأكثر من تجربة فكريّة، ويمثّل أكثر من ذهنيّة واحدة، ويملك من عناصر المرونة والبقاء ما لا يملكه أي نتاج فكري آخر، في كثير من الأحوال.

4 ـ خفّة الطبع:

والحياة في النجف على ما يبدو عليها من جدب المادّة، يطبعها المرَح وخفّة الروح. والطالب النجفي إن كان يعوزه المال الذي يدير به الحفلات (المحافل الأدبيّة) الساهرة فلا تعوزه الروح الخفيفة التي تهتزّ لبيت من الشِّعر رقيق، أو مناسبة شعريّة جميلة، أو زهرة زاهية تبتسم للشمس، أو طير يغرّد على دوحة فارعة خضراء.

ولا يأنس الطالب النجفي بشيء من متاع الدُّنيا كما يأنَس لهذه الندوات الأدبيّة التي تنعقد في النجف بين حين وآخر، فيجتمع فيها الشعراء، ليتعاطوا الشِّعر على أقداح من الشاي الحلو والقهوة العربيّة المُرّة أو دعوة (طبيخ ماش) أو (سمك الحَرش) أو (الباچة) وينشؤا أبياتاً رقيقة من الشِّعر، بمناسبة ساذجة أو بغير مناسبة، ويتحامل بعضهم على بعض، ويسخر منه، في كلام رقيق، وصفاء لا يشعر بحقد، وسذاجة تشبه

سذاجة الأطفال، حتّى تنحلّ الندوة وقد قضوا سويعات سعيدة، سمعوا فيها الشِّعر الجميل، وأنشدوا فيها الرقيق من النّظم وتعاطوا هذا الشِّعر المرتجل الذي يجري على ألسنتهم من غير كلفة، وأفرغوا في بطونهم شيئاً من هذا المايع والجامد الذي يُدار عليهم.

وفي هذه الندوات سلوة للروح، وترويحٌ عن النفس، وغذاء للفكر، وفيها يجد الشعراء مجالاً خصباً للمباراة الشِّعريّة، والناشئون مدرسة للتدريب ولتنمية مواهبهم الشعريّة.

وانعقاد هذه الأندية، بهذه البساطة المتناهية، والسذاجة، وما يشيع فيها من الصفاء والخفّة، من خصائص مدرسة النجف.

وإليك نماذج ممّا يجري في هذه الأندية:

ضمّت إحدى الأندية النجفيّة نفراً من فطاحل الأدب وجهابذة الشِّعر وأقطاب هذا الفنّ في ذلك العصر كالمرحوم السيّد محمّد سعيد الحبوبي والمرحوم الشيخ محمّد حسن كبّة والمرحوم الشيخ جعفر الشرقي وغيرهم.

ولم تدر بينهم أقداح القهوة حتّى حمى وطيس المحاورات الأدبيّة فأنشأ السيّد الحبوبي مرتجلاً في القهوة مخاطباً ساقيها بقوله:

فدَع عنّي السلافة ليس شيء

أعل لعلّتي من شرب قهوة

أدرهـا واسـقـنـيـهـا لا دهـاقـاً
ولـكـن حـسـوة مـن بـعـد حـسـوة

فعارضه المرحوم الشيخ محمّد حسن كبّة مفنّداً رأيه ومرتجلاً بقوله:

فـوا عـجـبـاً لـمـثـلـك أريـحـيّـا
يـشـف لـطـافـةً ويـروق قـهـوة
يـبـيـع سـلاف ريـقـتـهـا الـمـصـفّى
بـآجـن مـرّة تـدعـى بـقـهـوة
عـلـى أنّ الـسـلاف ومـا عـداهـا
فـمـن كـرم لـتـعـطـى الـروح نـشـوة
وتـلـك وويـل تـلـك ومـن حـسـاهـا
تـزيـد مـلالـةً وتـزيـل شـهـوة
هـلـمّ نـحـكّـم الـخـريـت فـيـنـا
فـذاك الـسـيـف لا تـعـروه نـبـوة

وقد قصد بالخريت الشيخ جعفر الشرقي فانتفض الشيخ كالأسد وأبدا حكمه مرتجلاً بقوله:

عـجـبـتُ وأنـتـمـا مـاءٌ وخـمـر
قـد اسـتـرعـيـتـمـا درّ الاخـوّة

فـكـيـف يـبـيـن بـيـنـكـمـا خـلافٌ
بـشــرب ســلافــة راقــت وقــهــوة
عـذرتـكـمـا عـلـيـه وكـلّ صـبّ
تـمـيـل بـه لـمـن يـصـبـيـه صـبـوه
أجل والشرك في المحبوب شرك
أبــتــه غــيــرةٌ حــمــدت ونــحــوة
ولــكــنّــي إذا حــكّــمــتــمــانــي
سـعـيـتُ لـذاك بـيـن صـفـا ومـروه
فـإن تـكـن الـسـلافـة فـهـي روح
وجـدت لـروحـهـا فـرحـاً ونـشـوه
وإن تـكُ قـهـوة بـالـمـسـك فـاحـت
فــمــن يــده وإن مــرّة لــحــلــوه
ومـا ذهــب الــســواد لـهـا بـشـيء
فـإنّ الـخـال زاد الـخـدّ حـظـوه

وهكذا انفضّ عقد ذلك المجلس والكلّ مرتاحون بتلك الأريحيّة والأدب السامي[1].

---

(1) الخليلي، الشيخ محمّد، أندية النجف، مجلّة الدليل، السنة الثانية، ص148.

وضمّ محفل من محافل النجف الأديبين الشهيرين المرحوم الحاج محمّد حسن أبو المحاسن والمرحوم آقا رضا الأصفهاني وغيرهم من الُادباء، وبعد أن قضوا شطراً من الجلسة في الأحاديث الممتعة والنكات البديعة أخرج أحدهم ساعته ليعرف الوقت فنظره الحاضرون واستحسنوا شكلها ثمّ اقترح أحدهما وصفاً ارتجالاً.

فقال أبو المحاسن:

مسمعةٌ تعجب ألحانها

لكنها ليست بسمّاعة

رقّاصها طفلٌ لدى مكتب

يقرأ في الجزء بتبّاعة

وأطرف المرحوم آقا رضا هُنيهة ثمّ رفع رأسه وارتحل:

غالية غالية المنتمى

في الشرق والغرب حَوت قبّتين

يا عجباً من طفل رقّاصها

يقرأ في الجزء بتبّاعتين

ولمّا سمعهما أبو المحاسن قال له لا فخر فقد سرقت تباعتيك من تباعتي فاسمع قولي:

عجبتُ للشيخ على فضله
في شعره يسرق تباعة
دقيقة يسطو بها آخذاً
مني ما قد قلت في ساعة[1]

وقرئت في ناد من أندية النجف قصيدة المرحوم السيّد سعيد الحبوبي الموشّحة التي قالها في زفاف أحد أصدقائه فطرب لها الحاضرون حتّى إذا بلغ المنشد إلى قوله:

قد شربت الخمر لكن كلماك
ما رأت عيني ولا ذاق فمي

فقام أحد المستمعين إلى المرحوم السيّد وكان حاضر المجلس وقال له أسألك يا سيّدي عن (قد) ماذا تفيد في الكلام؟ فقال له رحمه اللّه (قد) إذا دخلت على الماضي أفادت التحقيق، ولكن لم أشربها وحقّ جدّي. فضحك الحاضرون واستحسنوا سرعة التفاته إلى غرض السائل المداعب[2].

واجتمع ذات يوم في دار الشيخ محمّد كاظم الشيخ راضي كلّ من الأساتذة جعفر الخليلي والشيخ محمّد جواد آل

(1) الخليلي، أندية النجف، مصدر سابق، ص150.
(2) الخليلي، أندية النجف، مصدر سابق، ص150 ـ 151.

الشيخ راضي والشيخ محمّد الخليلي، وبعد حديث طويل أنشد الشيخ محمّد كاظم على سبيل الدعابة، وعلى طريقة الأديب النجفي قائلاً:

إنّي لمشتاق إلى باجة
قد طبخت عند الخليلي

وتطاولت الأعناق تستفسر عن المقصود منهما هل هو الأُستاذ جعفر أم الأُستاذ الطبيب، ولكن سرعان ما اندفع الأُستاذ جعفر منشداً ليوجّه الأنظار إلى ابن عمّه ويدفعها عن نفسه فقال:

لا سيما عند طبيب لكي
نحظى بأكل منه صحّي

فما كان من الشيخ محمّد جواد إلّا أن يقول:

نعم وهذا الرأي مستحسنٌ
وحسنه ليس بمستخفي

وهكذا أذعن الشيخ محمّد الخليلي وأُقيمت الوليمة بعد يومين وحضرها غير هؤلاء العلّامة الشيخ محمّد رضا المظفّر وجماعة من الفضلاء.

وبعد تناول الطعام فوجئ الجمع بقصيدة رائعة في حقّ (الباجة) وصاحبها وآكلها نظمت وأُلقيت من قِبل الشيخ محمّد

جواد الشيخ راضي والخطاب لصاحب الدعوة:

ناديك للاخوان مقصد ولصفوة الأُدباء معهد

قد كان مستشفى فعاد بفضل أهل الفضل مربد

فاهنأ بإخوان الصّفا فهم النجوم وأنت فرقد

ما شئت قُل في فضلهم واستشهد الحلبات تشهد

لو رمتُ نظم صفاتك الغرّا ملأت بها مجلّد

إن فاض جودك ليس يمنع فيضه (روف) ولا سدّ

عوّدتنا منك الجميل فعُد له والعود أحمد

لو لم يحدده اليمين بباجة لتجاوز الحَدّ

وينتهي ثناؤه على صاحب الدعوة ويلتفت إلى الحاضرين ويُجيل نظره فيهم ليختار منهم من يستطيع أن يورّطه في دعوة مماثلة، ويقع اختياره على الأُستاذ أبي رجاء السيّد هادي فيّاض:

اليوم يومك يا محمّد وأبو رجاء يومه غد

أندى البريّة راحةً وأغرّهم نسباً ومحتد

في جدّه وبمجده شرع المفاخر قد تجدّد

المفرد العلم الذي (بأبي خريزة) قد تفرّد

ثمّ يلتفت وإذا بالشيخ محمّد رضا المظفّر قابع في الزاوية، وكأنّ الأمر لا يعنيه بعد أن انتهى الطعام ودار الدائرة

على غير فقال يخاطبه:

أمّا (الرّضا) الحبر المؤيّد — فعلى الولائم قد تعوّد
ما ذاق طعم طعامه — يوماً ولا منه تزوّد
لم يبق من تلك الرؤوس — لنا سوى العظم المجرّد
فكأنّما أسنانه — مشحوذة أسنان مبرد
قلبَ اليمين على الشمال — وحلَّ مئزره وعربَد
وأتى على ذاك الثريد — فمثرد من بعد مثرد
فالأذن تصلم باليمين — وبالشمال تجرّد اليد
أكل الرؤوس جميعها — فاسلم برأسك يا محمّد

وما كان ينتهي من إنشاده وإذا بالأُستاذ جعفر الخليلي يقف منتصباً ويطلب منهم أن يصغوا إليه وإذا به يصف حاله وحالهم في أبيات رقيقة نظمها أثناء استماعه لقصيد الشيخ، قال:

قد مشوا تحفّهم — المغريات والنهم
ينشدون متسعاً — طالما به حلموا
كلّ منزل وله — عنده لمزدحم
كلّ شارع وبه — من مسيرهم قدم
كلّ أكلة ولها — في حياتهم قيم

ويــك أنّــنــا نــقــرّ لــيــس ذمّــة لــهــم
شـغـلـنـا نـسـج آكـلـة وعـلـيـهـا
البـعـض منّا ببـعـضـنـا يـسـتـعـيـن
لا نُـبـالـي إن كـان مـن أجـل هـذا
ذهـبـت أفـرش وبـيـعـت صـحـون
يـا أبـا صـادق أجـارك ربّـي
مـن جـمـاهـيـر هـمّـهـنّ الـبـطـون
حـسـبـك الـلّـه إنّ واحـدهـم
ألـف، وإن شـئـت واحـد مـلـيـون

ويقول الأستاذ جعفر الخليلي:

وفي أوقات فراغنا كنّا نبتكر المتع ابتكاراً فنقضي مع عدد من الأصدقاء أوقاتاً طيّبة فنطبخ ـ المقالب ـ ونهيىء المناسبات لنحمل بعض الأصدقاء على دعوتنا في بيته، وأكثر من عرف بين أصدقائنا بإجادة نسج الأشراك للصيد كان الشيخ محمّد كاظم الشيخ راضي وكنت أنا. وأذكر أنّ الشيخ محمّد حسين المظفّر جاءني مرّة يطلب منّي أن أضع الخطّة التي تدعو الميرزا صالح الخليلي وهو من أبناء عمومتي والمُقيم في قصبة الكوفة لأن يولم لنا وليمة من طيور البط المعروف بالخضيري، فقلت له: ولِمَ لا تفعل أنت ذلك وإنّ بينك وبين ابن عمّي هذا من الصِّلات ما يضمن لك تحقيق المطلوب بمجرّد أن تطلب؟

قال: صحيح، ولكنّي فاقد لهذه اللّباقة التي تملكها أنت ويملكها الشيخ محمّد كاظم.

و تمّت الوليمة وكان حضّارها بضعة عشر نفراً من الفضلاء والأُدباء وقد خصّ كلّ واحد منهم بطير من ـ الخضيري ـ وما كدنا نفرغ من الطعام حتّى فاجأنا الشيخ محمّد رضا المظفّر بمقطوعة من الشعر المرح الضاحك يرثي بها الميرزا صالح الذي راح ضحيّة صيّادين مهرَة اعتادوا أن ينصبوا شباكهم ليصيدوا فقال:

أين المفرّ من ـ العزيمة ـ
يا بعدها خططاً حكيمة
نصبوا ـ أبا الهادي ـ الشُباك
وقد وقعت بها غنيمه
صادوك أم صادوا طيو
رك أم جيويك للوليمه
ودعيت لو تدري إلى
ما ليس يُدفَعُ بالهزيمه
فاصبر على مضض فما
للصيد غير الصبر شيمه

إن قلت إنك قد خُدعت
بنا فليس من النميمه
فاقنع بأن ندعوك من
ملق أيا زاكي الأرومه
وعلى غدائك قد جثونا
- جيمة - من بعد - جيمه -
وعلا ضجيج القوم ينتظرون
من نَهم قدومه
ولقد جلسنا حول مائدة
الطعام العذب - كومه -
واصطكّت الأسنان
نقضم من مفاخره لحومه
و إذا سمعتم بالهجيمة
هذه معنى - الهجيمة -
عَجبي من القرم - الخليلي -
كيف لم يقطع شكيمة
فيفرّ من وجه العدالة
تاركاً فينا رسومه

يــا ـ صــالــحــاً ـ حــيــث أنــت
إلــى الـعُـلــى أســمــى عــزيــمــه
ولــك الــســمــاحــة أنــجــبــت
فــيــهــا الــخــؤولــة والــعــمــومــه
وعــلــى نــداك دلــيــلــنــا
طــيــب الأبــوّة والأُمــومــة
ومــن الــعــجــائــب أنّــهــم
مــنــحــو الــحــبــال وأنــت ديــمــه
لــو أنّــهــم رغــبــوا ـ بــثــانــيــة ـ
وعــالــوا ربّ ـ ديــمــه ـ
لأحــبــبــت هــيــلا ونــفــس
لا تُــجــيــبــكــم لــئــيــمــه

وهمس في أُذني الشيخ محمّد كاظم الشيخ راضي قائلاً: أرأيت كيف تنصّل المظفّر كأنّنا نحن الذين صِدنا قريبك الخليلي ولم يكن أخوه السبب؟ قلت: وما الذي تريد الآن؟

قال ـ أن نعمل بالشيخ محمّد رضا المظفّر ما عملناه مع ميرزا صالح الخليلي، فكانت وليمة من أعمر الولائم في بيت آل المظفّر.

وكذلك كان الشيخ محمّد رضا المظفّر يكثر من ارتياد

هذه الأندية، أو يحلو له أن يخلق هذه المناسبة التي يهتزّ لها الشاعر النجفي ويستخفّه، يتعاطى فيها الشِّعر الرقيق الذي يجمع إلى الرقّة سلامة التعبير وجمال الأداء.

وتحمل النجف الأشرف رسالة ضخمة، تناسب مكانتها الاجتماعيّة من الوطن الإسلامي الكبير، وتختلف مسؤوليّتها إزاء ما يجري من الأحداث وما يتجدّد من الأحوال وما يطرأ على العالم الإسلامي من اتّجاهات عقائديّة عن أيّ مركز آخر. فهي تحتلّ منذ ألف سنة تقريباً هذه الموقعيّة الحسّاسة من العالم الإسلامي. وهذه الموقعيّة تضفي على النجف من القُدسيّة ومن المسؤوليّة في نفس الوقت ما لا تتوفّر لأيّة جهة اجتماعيّة أُخرى في العالم الإسلامي الشيعي، ولا أُريد أن أنتقص مع ذلك من شأن المراكز الإسلاميّة الشيعيّة الأُخرى في إيران والهند وأفغانستان والعراق وما لها من تاريخ مشرق في الجهاد والدعوة.

ولا أُريد أن أقول إنّ النجف لم تتوان طيلة هذا الزمن الطويل في القيام برسالتها، كما يليق بمكانتها من الوطن الإسلامي. ولكن النجف مع ذلك كلّه ما تزال محتفظة بمركزيّتها التوجيهيّة والعلميّة في العالم الإسلامي، وما تزال قلوب المؤمنين من أرجاء العالم الإسلامي تحوم حول هذه البقعة المباركة، التي يرقد فيها التلميذ الأوّل لمدرسة الإسلام الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام).

ولا يسع الباحث في مثل هذا الاستعراض السريع أن يشرح جوانب هذه الرسالة الضخمة، إلّا أنّنا نحاول أن نلمح في هذا الحديث، في حدود حوصلة البحث، إلى جوانب من هذه الرسالة، ولعلّ القارئ يلمس من خلال هذا العرض السريع ضخامة الرسالة التي تحمّلها النجف الأشرف.

1 ـ المرجعيّة في الفتيا والتوجيه:

ولكي نفهم ما يعني من هذه الكلمة يجب أن نلحظ:

أوّلاً: إنّ طبيعة المرجعيّة الإسلاميّة تختلف عن المرجعيّة في أيّ شيء آخر، فعندما توضع (المرجعيّة) في إطار (التشريع الإسلامي) تتّسع لكلّ ما يعني الإنسان من شأن في حياته فيما يتّصل بشؤونه الفكريّة والماديّة. وتحديد المرجعيّة الدينيّة في الإسلام في إطار مسائل الصلاة والطهارة والحجّ لا مبرّر له بالنظر إلى سعة مفهوم الدِّين في الإسلام.

ولا يملك المسلم، إن كان يؤمن بالإسلام عقيدة ونظاماً للحياة أن ينحرف عن التوجيه الإسلامي في شأن من شؤون حياته، مهما كان لونه، ولا يقف الإسلام موقفاً سلبيّاً من أيّة ظاهرة اجتماعيّة. والمسلم بهذا الحكم لا يملك إلّا أن يحدّد موقفه من الظواهر الاجتماعيّة التي تحفّ به بالشكل الذي يقرّره التشريع الإسلامي، ولذلك فالمرجعيّة الدينيّة في غيبة الإمام تعني (الحكومة الإسلاميّة) بما في هذه الكلمة من شمول

وعمق. وفي أحاديث أهل البيت عليهم السلام دلالة واضحة على ذلك.

يقول الإمام العسكري (عليه السلام) في تعريف شخصيّة المرجع وموقف العوام من المسلمين إزاء مراجع التقليد: «... من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه».

ويقول الإمام الصادق (عليه السلام): «انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا فارضوا به حَكَماً، فإنّي قد جعلته عليكم حاكماً. فإذا حكم، حكم بحكمنا، ومن لم يقبل منه فإنّما بحكم اللّه استخف وعلينا ردّ والرّاد علينا رادٌّ على اللّه. وهو على حدّ الشرك بالله».

وثانياً: إنّ الفقه الإسلامي يملك في محتواه الداخلي من عناصر التطوير ما يجعله صالحاً لمسايرة الأوضاع الاجتماعيّة في كلّ عهد. وتحديد الاجتهاد بظروف اجتماعيّة خاصّة، كانت تقتضيه، فيزول عندما تزول تلك الظروف وتحلّ محلّها ظروف اجتماعيّة أُخرى.

ولا يمكن أن يحتفظ الفقه الإسلامي، بما فيه من عناصر الحياة والتطوّر، ما لم يتفاعل مع الأحداث بصورة مستمرّة، يتفتّح لما يحدث في المجتمع من حاجة جديدة أو وضع ويحدّد لنفسه من كلّ ذلك موقفاً تشريعيّاً واضحاً، مستمّداً من صلب التشريع ومن مصادره الأصيلة.

وبما أنّ المدرسة النجفيّة تتبنّى فكرة انفتاح باب الاجتهاد، فهي تضطرّ أن تواكب التطوّرات الاجتماعيّة، وتجدّد في الفقه الإسلامي تلبية دائمة لما يتجدّد للناس من حاجة فيما يتّصل بشؤون الحضارة البشريّة. وبملاحظة هذين الجانبين يتجلّى لنا ضخامة الرسالة التي تتحمّلها النجف في المرجعيّة والفتيا والتوجيه الاجتماعي.

والمؤمنون يتوجّهون إلى هذه الجامعة الإسلاميّة، فيما يتوجّهون إليه من الجامعات الإسلاميّة، ليتلقّوا التوجيه الديني فيما يهمّهم من شؤون الحياة.

والمدرسة النجفيّة تضطرّ، بحكم موقعها الديني وبحكم فهمها للمرجعيّة والتوجيه الدينيى، أن تتفتّح بتوسّع للتوجيه الاجتماعي وتلبية الحاجات الإنسانيّة وتتطوّر مع الأحداث، وتحدّد موقف المسلم المعاصر من كلّ ما يطرأ على المجتمع الإسلامي من شأن.

ولعلّنا نلمس ملامح من ذلك فيما يصدر عن النجف من الرسائل العمليّة والتعليقات والفتاوى. وترد النجف يوميّاً مئات الأسئلة والاستفتاءات، كما تصدر عنها يوميّاً بما يضاهي هذه الكميّة من الفتاوى والأجوبة.

ولا يشقّ على الباحث أن يلمس، في دراسة التاريخ المعاصر للوطن الإسلامي، الخيوط الدقيقة التي تربط النشاط السياسي الإسلامي في هذا الوطن بالنجف الأشرف، أينما كان.

2 ـ الدعوة الإسلاميّة:

وهو وجهٌ آخر من هذه الرسالة الضخمة التي تقوم بها النجف. وللنشاط الدعوتي مظاهر مختلفة في هذه الجامعة الإسلاميّة. فالخطابة الدينيّة مظهر من هذه المظاهر. ومن النجف ينطلق التوجيه الخطابي، بصورة واسعة، فينتشر الخطباء من هذه البلدة في شهر رمضان وشهري محرّم وصفر ومناسبات إسلاميّة أُخرى ليقوموا بواجبهم الإسلامي من توجيه ودعوة.

وينتشر الخطباء من النجف إلى إيران وأفغانستان وباكستان والهند وسوريا ولبنان والكويت والبحرين وسواحل الخليج. وبعض الأنحاء من القارّة الافريقيّة ويقومون هنا بأداء رسالتهم الإسلاميّة على أوسع نطاق، فيخطبون في المسلمين ويُجيبون على أسئلة المراجعين منهم ويقومون بتوجيههم وبمعالجة بعض ما يعانون من مشاكل وصعوبات.

والسفارات والبعثات الدينيّة جزءٌ آخر من رسالة النجف، ففي كلّ سنة ينحدر عن النجف سيلٌ من البعثات الدينيّة والإرساليّات الإسلاميّة لينتشروا في أرجاء العالم الإسلامي وليقوموا هناك بالدعوة والتوجيه والتثقيف الديني.

والكتابة والنشر بعد ذلك من أهمّ جوانب هذه الرسالة. وللنجف تأريخ مشرق في هذا الحقل من حقول الدعوة، وقد كانت النجف في العقود المتأخّرة تعتبر مبعثاً لحركة النشر والتأليف.

وكانت تقف بالمرصاد للمحاولات الماديّة والمسيحيّة الأثيمة لتشويه حقائق الإسلام وتسميم أفكار المسلمين.

وكتب (الرحلة المدرسيّة) و(الهدى إلى دين المصطفى) و(أنوار الهدى)، و(التوحيد والتثليث) للإمام البلاغي و(الدِّين والإسلام) و(القول الصحيح فيما هو الإنجيل) و(من هو المسيح) و(الآيات البيّنات) للإمام كاشف الغطاء، و(نقد دارون) لآقا رضا الأصفهاني نماذج حيّة من هذا النشاط.

وقد أُصيبت حركة النشر والتأليف بفتور في الفترة الأخيرة، ولكن النجف عادت فاستطاعت بفضل جهود أبنائها أن تلاحق حركة التأليف والنشر والكتابة في العالم الإسلامي وتسبقها في بعض الأحيان.

وفي كتابات الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء والشيخ محمّد حسن المظفّر والشيخ محمّد رضا المظفّر والسيّد عبد الحسين شرف الدِّين، باعتباره من خرّيجي هذه الجامعة، والشيخ عبد الحسين الأميني والشيخ محمّد أمين زين الدِّين.... دلالة واضحة على ذلك.

وفي النجف كانت هناك طليعة مباركة من الكتّاب والباحثين الإسلاميّين الذين يمتازون بسعة الاطّلاع والعمق والوضوح وتمتاز كتاباتهم بروعة العرض وسلامة التعبير وجمال الأداء وجدّة الصوغ، نذكر منهم السيّد محمّد باقر الصدر مؤلّف (فلسفتنا) و(اقتصادنا) و(المدرسة الإسلاميّة)، والسيّد

محمّد تقي الحكيم مؤلّف (الاُصول العامّة للفقه المقارن) و(مالك الأشتر) و(شاعر العقيدة)، والشيخ أسد حيدر مؤلّف الموسوعة العلميّة الكبيرة (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة)، والسيّد محمّد حسين فضل اللّه مؤلّف (قضايانا على ضوء الإسلام) و(أسلوب الدعوة في القرآن)، والشيخ عبد الهادي الفضلي مؤلّف (مشكلة الفقر) و(من البعثة إلى الدولة) و(في انتظار الإمام) و(التربية الدينيّة)، والشيخ كاظم الحلفي مؤلّف (الإسلام نظام وعقيدة) و(الرِّبا في القرآن) و(الخمر في القرآن) و(الإخلاص) وعشرات المؤلّفات الاُخرى، والسيّد محمّد بحر العلوم مؤلّف (ضحايا العقيدة) وغيره، والشيخ محمّد مهدي شمس الدِّين مؤلّف (نظام الحكم والإدارة في الإسلام) و(بين الجاهليّة والإسلام) و(دراسات في نهج البلاغة) و(علمانيّة الدولة)، و(المعتزلة) للشيخ محمود المظفّر. والسيّد عدنان البكّاء مؤلّف (الاُسرة المسلمة) و(نظرات في السُّنة)، وبنت الهدى مؤلّفة (المرأة مع النبيّ) و(كلمة ودعوة)، والشيخ باقر القرشي مؤلّف (النظام السياسي في الإسلام) و(حقوق العامل) وغيرهما، والشيخ محمّد الخليلي مؤلّف (الأخلاق في القرآن الكريم) و(أمالي الإمام الصادق) و(طبّ الإمام الصادق) و(المطهّرات في الإسلام)، والسيّد محمّد الصدر مؤلّف (نظرات إسلاميّة) و(أشعّة من العقيدة) وغيرهم ممّن تقوم على عواتقهم أعباء الرسالة الإسلاميّة الضخمة.... بالإضافة إلى العلماء الذين أشغلتهم مهمّة المرجعيّة عن الكتابة والتأليف.

وكان في النجف نشاط صحافي إسلامي قويّ، ففي وقت واحد تصدر فيها مجلّات الأضواء والنجف والإيمان والغري.

وأصدرت (جامعة النجف الدينيّة) المؤسّسة الإسلاميّة الكبرى في هذه البلدة مجلّة اسبوعيّة راقية باسم «الجامعة».

3 ـ إنعاش الحركة العلميّة والأدبيّة:

وهذا جانب ثالث من رسالة النجف الأشرف، ولا يقلّ أهميّة من الجانبين الأوّلين من رسالتها. وقد بلغت مدرسة النجف القمّة في دراسة الفقه وأُصوله وطوّرت من أبحاثهما وجدّدت النظر منهما وبلورت مفاهيمهما. ويكفي أن يلقي الإنسان نظرة واحدة على الموسوعات الفقهيّة النجفيّة كجواهر الكلام وكشف الغطاء ومفتاح الكرامة ومستمسك العروة الوثقى ليلمس مدى تطوّر البحث الفقهي في مدرسة النجف.

وقد ألمحنا إلى ملامح من هذا التطوّر فيما تقدّم من هذا الحديث، وسنستوفي البحث عن هذا الجانب في حديث مستقلّ إن شاء اللّه.

وفي دراسة الأدب يكفي أن نقول إنّ الشيخ الرضي الاسترآبادي كتب موسوعته النحويّة الكبيرة (شرح الكافية) بحمى المرقد العلوي، كما يشير إلى ذلك هو في كتابه. ولا يقلّ شرح الكافية عن كتاب سيبويه في شيء، مهما بالغنا في أهمّية هذا الكتاب.

وفي المكتبة النجفيّة تراثٌ فكري ضخم في الحديث وأُصوله والتفسير وأُصوله والرِّجال والتأريخ والرياضة والفلك والأدب.

والنجف الأشرف منهلٌ عذب من مناهل الشِّعر. وفيها يجد الباحث آفاقاً رحبة وألواناً جديدة من الشِّعر.

وليس هناك من يجهل مكانة الشبيبي الكبير وأخويه والشرقي والجواهري والهاشمي والمطري والصافي والفرطوسي واليعقوبي والحبّوبي وجمال الدِّين وبحر العلوم والقاموسي وحيدر وفضل اللّه والصغير من الشعر العربي وممّا فتحوا من آفاق واسعة وكشفوا من ألوان جديدة فيه.

أمّا بعد فهذه لمحة خاطفة عن الحياة الفكريّة في النجف الأشرف أرجو أن أكون قد وفّقت في عرضها بأمانة وإخلاص، وأن أُوفّق فيما بعد لأن أتبعها بدراسة أوفى منها.

الفصل الثاني

النشأة الفكريّة والمشروع الإصلاحي

رأينا فيما تقدّم من هذا الحديث أنّه لا يمكن فصل الشخص عن بيئته التي نشأ فيها، وعمّا تحمل هذه البيئة من ملابسات، إذا حاولنا أن نتناول حياته بالبحث.

وقد حاولنا لذلك أن نلمّ إلمامة سريعة بالحياة الفكريّة في النجف، ونلقي أضواء جديدة على هذه الحياة التي يعيشها الطالب النجفي بما فيها من جدب وخصب وجفاء وعطاء.

وتوخّينا من ذلك تعريف النجف إلى القرّاء أوّلاً، والتمهيد للبحث عن حياة الشيخ المظفّر ثانياً. ووجدت فيما استعرضت من الكتب التي تعنى بالنجف أنّ هذا الجانب من الحياة الفكريّة في النجف تكاد أن تكون مهملة، ولو لم يقدّر لها أن تؤرَّخ لضاعت فيما ضاع من ملامح التاريخ الإسلامي.

وسوف نحاول أن نلمّ إلمامة سريعة بالأجواء العائليّة التي عاشها فقيدنا الشيخ محمّد رضا المظفّر في البيت لنتبيّن من خلال ذلك ملامح من نشأته الفكريّة:

بيت المظفّر

أُسرة المظفّر من الُاسر العلميّة في النجف الأشرف، عرفت فيها في أواسط القرن الثاني عشر وقطن بعض رجالها الجزائر[1] التابعة للواء البصرة.

وكان الفقيه المجتهد الشيخ محمّد بن عبد اللّه والد الفقيه الشيخ محمّد رضا المظفّر من علماء النجف ومراجع التقليد فيها (نشأ في النجف وترعرع فيها، وكان في عنفوان شبابه منقطعاً إلى الجدّ والتحصيل، مكبّاً على العبادة والتدريس، إلى أن برع في الفقه وعُرف بجودة التحقيق فيه) وألّف موسوعة فقهيّة جليلة شرح فيها كتاب (شرائع الإسلام) وسمّاها بتوضيح الكلام وقد استقصى فيه الفقه من مبدأه إلى منتهاه)[2].

وولد الشيخ محمّد رضا المظفّر في اليوم الخامس من شعبان عام 1322 بعد وفاة والده بخمسة أشهر فلم يقدّر اللّه تعالى أن يظفر الطفل الرضيع برؤية والده ولا الوالد أن يظفر برؤية ولده فكفله أخوه الأكبر الشيخ عبد النبيّ المتوفّى سنة 1337 وأولاه من عنايته وعطفه ما أغناه عن عطف الُابوّة.

وكان الشيخ عبد النبيّ فاضلاً يؤمّ الناس في الصلاة

(1) محبوبة، الشيخ جفر، ماضي النجف وحاضرها، النجف، ج3، ص361.
(2) آل المظفّر، الشيخ محمود المظفّر.

بمسجد المسابك في النجف. وتولّى رعاية الشيخ محمّد رضا بعد وفاته أخوه الشيخ محمّد حسن المظفّر رحمه اللّه.

وكان الشيخ محمّد حسن المظفّر من المجتهدين الكبار ومن مراجع التقليد المبرزين. تخرّج على الشيخ محمّد كاظم الخراساني صاحب (الكفاية)، والسيّد محمّد كاظم اليزدي صاحب (العروة الوثقى) وشيخ الشريعة الأصفهاني والشيخ علي الشيخ باقر آل صاحب الجواهر، وشهد له بالاجتهاد كثيرٌ من مشايخه.

وأهمّ مؤلّفاته (دلائل الصدق) لنهج الحقّ في الإماميّة في ثلاثة مجلّدات طبعت سنة 1369هـ، و(الإفصاح في أحوال رجال الصحاح»، وموسوعة فقهيّة استدلاليّة، وهي شرح (لقواعد العلّامة الحلّي) في سبعة مجلّدات طبع منها كتاب الحجّ، و(حاشية على العروة الوثقى) و(رسالة عمليّة مطبوعة).

وأمّا الشيخ محمّد حسين المظفّر أخوه الثالث فقد تخرّج على الميرزا محمّد حسين النائيني والشيخ آغا ضياء العراقي والسيّد أبو الحسن الأصفهاني وأخيه الشيخ محمّد حسن.

وله آثار كثيرة مطبوعة كالصادق، وميثم التمّار، والشيعة والإمامة، والثقلان، وتاريخ الشيعة وغيرها ممّا لم يطبع.

نشأته الفكريّة

وممّا تقدّم من حديث البيئة والبيت يلمس الباحث ملامح من نشأة الفقيد الفكريّة.

فقد نشأ في البيئة النجفيّة وتقلّب في مجالسها ونواديها وحلقاتها ومحاضرها ومدارسها، وحضر فيها حلقات الدراسة العالية، وتخرّج على كبار مراجع التقليد والتدريس، وترعرع في هذا البيت العريق من بيوتات النجف العلميّة، وتعهّد رعايته وتربيته أخواه العَلَمان الشيخ عبد النبيّ والشيخ محمّد حسن.

ويمكننا أن نقسّم نشأة الشيخ الفقيد الفكريّة إلى دورين، تفرّغ في الدور الأوّل منهما للدراسة، بالشكل المعروف في مدرسة النجف، والذي تحدّثنا عن أطراف منه، وحضر أبحاثها ودراساتها على مختلف مستوياتها، وبرع فيها ونال مرتبة الاجتهاد وشهد له بذلك أساتذته وشيوخه في التدريس، وكان في هذا الدور من حياته متّجهاً للمرجعيّة، وكانت مواهبه الفكريّة تؤهّله لذلك، ولأنّ الشيخ تطلّع في هذه الفترة من حياته إلى لون جديد من التفكير، واتّجه إلى إصلاح الوضع الدراسي وأساليب الدعوة، وانصرف عن المرجعيّة وما يلابسها من شؤون، فقضى الدور الثاني من حياته في هذا الجانب من النشاط الإصلاحي.

وقد ابتدأ الدور الأوّل من حياته، بما يتعارف عليه

الطالب النجفي من حضور الدراسات الأدبيّة والفقهيّة والأصوليّة والعقليّة.

وتتلمذ على الشيخ محمّد طه الحويزي في الأدب والأُصول كما تتلمذ في الشِّعر، وبرع في ذلك كلّه، وتتلمذ على غيره من أساتذة دروس مرحلة السطوح في ذلك الوقت، وبرز الشيخ الفقيد في ذلك كلّه.

وبعد أن أنهى الدور الإعدادي (السطح) تفرّغ للدراسات العالية في الفقه والأصول والفلسفة.

وحضر فيها على أخيه الشيخ محمّد حسن مع أخيه الآخر الشيخ محمّد حسين، كما حضر درس الشيخ آقا ضياء الدِّين العراقي في الأُصول، ودرس الشيخ ميرزا محمّد حسين النائيني في الفقه والأُصول، وحضر بصورة خاصّة أبحاث الشيخ محمّد حسين الأصفهاني رحمه اللّه في الفقه والأُصول والفلسفة الإلهيّة العالية.

وحضر دورة كاملة بحث الشيخ محمّد حسين الأصفهاني في الأُصول في مدرسة النجف وفي غير هذه المدرسة من مدارس الأُصول.

وانطبع الشيخ المظفّر كثيراً بآراء أُستاذه الشيخ الأصفهاني في الأُصول والفقه والفلسفة وجرى على نهجه في البحث في كتابه (أُصول الفقه)، حيث تبع منهجه في تبويب الأُصول، كما يشير هو إلى ذلك في ابتداء الكتاب، كما تأثّر بمبانيه الخاصّة

على ما يظهر ذلك من خلال كتابه الكبير (أُصول الفقه)، فيما أنجز من هذا الكتاب. ورأيت عنده نسخة كاملة من كتابه حاشية الكفاية للأصفهاني قد استنسخه بيده، ممّا يدلّ على اهتمامه بما يتعلّق ببحوث الأصفهاني وكان يجلّه إجلالاً كبيراً، كلّما جرى له ذِكر، أو أُتيح له أن يتحدّث عنه، ويخلص له الحبّ والاحترام، أكثر ممّا يخلص تلميذ لأستاذه.

ويلمس القارئ هذا الشعور والوفاء فيما كتب المظفّر عن أُستاذه في مقدّمات كتبه الفقهيّة والفلسفيّة وفي مقدّمة الأسفار وغيرها من رسائله ومقالاته.

وتخرّج الشيخ كذلك على مشايخه في الفقه والأُصول والفلسفة، واستقلّ هو بالاجتهاد والنظر والبحث وشهد له شيوخه بذلك.

وكان الشيخ خلال ذلك كلّه يشتغل بالتدريس على مستوى الدراسات الإعداديّة والدراسات العالية في الفقه والأُصول والفلسفة.

وتخرّج عليه فيها جماعة من الفضلاء فيهم من بلغ بعد ذلك مرحلة الاجتهاد.

وابتدأ بدراسة المكاسب والرسائل للشيخ الأنصاري، ثمّ شرع في التدريس العالي للفقه والأُصول، واستمرّ في هذا اللّون العالي من التدريس خارج كليّة الفقه إلى أواخر أيّامه، قبل مرضه الأخير.

وكان يدرّس في الفلسفة كتاب (الأسفار الأربعة) في بيته ويحضره جماعة من الفضلاء، ممّن نشأوا على يديه، وبرعاية منه.

ذلك كلّه خارج مدارس منتدى النشر وكلّيتها، أمّا فيها فقد نذر حياته على تنميتها وتطويرها بمختلف الألوان. كان يقوم فيها بتدريس الأدب والمنطق والفلسفة والفقه والأُصول من المستوى الأُولى إلى المستوى العالي، لا تمنعه من ذلك مكانته المرموقة في الحوزة، ولا إمكانيّاته الفكريّة العالية.

وكم رأينا الشيخ محمّد رضا المظفّر يحاضر على الصفوف الأُولى من مدارس منتدى النشر ويتلقّى أسألتهم برحابة صدر، ويدفعهم إلى البحث والدرس والتفكير، ويحشر نفسه معهم، حتّى كان يبدو للإنسان، لأوّل وهلة، أنّه يخاطب زملاء له في الدراسة لا طلّاباً بهذا المستوى.

وكان الشيخ يمتاز فوق ذلك كلّه بعمق النظر ودقّة الالتفاتة وسلامة الذوق وبُعد التفكير فيما تلقّينا عنه من الفقه والأُصول والفلسفة.

وحاول الشيخ في الدور الأوّل من حياته أن يلمّ بالعلوم الرياضيّة والفلك والطبيعة والعروض. وأُصيب في شبابه بمرض فأوصاه الطبيب أن يتجنّب الدرس والتدريس مدّة من الزمان.

وأتاحت هذه الفترة فرصة طيّبة للشيخ ليتقلّب في كتب الرياضيّات وأن يستمرّ بعد ذلك في تعقيب هذا العلم بإشراف بعض الاختصاصيّين من مدرِّسي ثانويّة النجف.

وكانت الثقافة العصريّة لا تنفذ إلى النجف إلّا نادراً، واتّفق أن وقعت يد الشيخ على طرف من هذه الثقافة، وهو في بدء شبابه، فتذوّقها، وحاول أن يشقّ طريقاً لهذا اللّون الجديد من الثقافة إلى النجف، واتّفق مع آخرين ممّن كانوا يتذوّقون هذا اللّون الجديد من الثقافة على أن يراسلوا بعض المجلّات العلميّة كالمقتطف وبعض دور النشر لتبعث إليهم هذه الصحف والكتب التي تحمل إليهم هذا اللّون الجديد من الفكر.

وكان ممّا يستوردونه من هذه الثقافة مؤلّفات الطنطاوي الجوهري في التفسير والروحيّات وبعض المجلّات المصريّة والكتب الأدبيّة. وأُتيحَ للشيخ فيما بعد أن يستمرّ على هذه الحالة ويواكب الحركة الفكريّة الناشئة ويأخذ نصيباً وافراً من هذه (العلوم الجديدة)، كما كانوا يسمّونها، ويتأثّر بها تأثّراً بالغاً إلى جنب تأثّره بشيوخه في الفقه والأُصول والفلسفة.

آثاره العلميّة

كان النشاط العلمي والكتابة والتأليف يشكّل جزءاً مهمّاً من رسالة الشيخ محمّد رضا المظفّر ونشاطه.

وإذا ضممنا نشاطه العلمي في التأليف والنشر إلى نشاطه الإصلاحي على الصعيد العام والصعيد الدراسي للمسنا جانباً من هذا الجهد الكبير الذي كان يبذله الشيخ في حياته.

وفي كتابات الشيخ يقترن جمال التعبير وسلامة الأداء

وجدّة الصوغ وروعة العرض بخصوبة المادّة ودقّة الفكرة وعمق النظرة وجدّة المحتوى، ويأتلف منهما مزيج من العلم والأدب يشبع العقل ويروي العاطفة.

فقد كان يجري في الكتابة، كما يجري ا لماء، من غير أن يظهر عليه شيء من الكلفة أو التصنّع، وينساق القارئ معه كما ينساق الماء على منحدر من الأرض، من دون أن يعرقل سيره شيء ولا يصطنع في الكتابة هذه المحسنات البديعيّة التي تصرف الكاتب عن الانسياق مع الفكرة وتصرف القارئ عن مجاراة الموضوع.

والمواضيع التي كان يتناولها بالكتابة والبحث مواضيع علميّة كالُأصول والمنطق والفلسفة، يعسر على الأديب أن يصوغها صياغة أدبيّة أو يفرغها في قالب أدبي من التعبير. وقد توفّق الشيخ إلى أن يضمّ إلى عمق المادّة جمال العرض. وأكثر ما يبدو هذا التوفيق في كتابه (أحلام اليقظة) حيث يناجي فيها صدر المتألّهين ويتحدّث معه فيما يتعلّق بنظريّاته في الفلسفة الإلهيّة العالية ويتلقّى منه الجواب بصورة مشروحة وبعرض قصصي جميل.

ولا أُبالغ إذا قلت إنّ الكتاب فتح كبير في الكتابة الفلسفيّة فلا تشكو الفلسفة شيئاً كما تشكو الكتابة التي لا تخضع لها أداتها.

وقد حاول الشيخ المظفّر أن يخضع الكتابة للفلسفة، أو

يخضع الفلسفة للكتابة، ويجمع بينهما في كتابه هذا.

وتمتاز كتابات الشيخ المظفّر بعد ذلك بروعة العرض والتنسيق، حتّى أنّ كلّ نقطة من البحث تأتي في موضعها الطبيعي ولا تتغيّر عن مكانها الخاص حتّى تختلّ أطراف البحث، ويبدو عليه الاضطراب ويتجلّى توفيق الكاتب في التنسيق في كتاب (المنطق) أكثر من غيره، ففي هذا الكتاب يجد القارئ كيف تأخذ المواضيع بعضها برقاب بعض، وكيف يترتّب كلّ موضوع على سابقه في تسلسل طبيعي، من غير أن يحيل الطالب إلى موضوع آخر في غير هذا الكتاب أو إلى ما يمرّ عليه فيما بعد.

ويعتبر الكتاب بالانضمام إلى شقيقاته (الأُصول) و(الفلسفة) التي لم يقدّر اللّه لها أن تظهر، كاملةً.... تجديداً في كتابة الكتب الدراسيّة، وفتحاً في هذا الباب، وعسى أن يقيّض اللّه من يتابع خطوات الشيخ المظفّر في هذا السبيل.

ويجد الباحث بعد ذلك في كتب الشيخ المظفّر جدّة البحث والتفكير التي تطبع كتاباته جميعاً.

ويجد ملامح هذه الجدّة في البحث والتحليل واضحة قويّة في كتاب (السقيفة) عندما يحلّل اجتماع المسلمين في سقيفة بني ساعدة، وما حدث هناك. وعندما يتحدّث عن موقف المهاجرين والأنصار من مسألة الخلافة وموقف الإمام مع الخلفاء.

كما يجد هذه الجدة في المنطق عندما يستعبر العلامات المستعملة في الرياضيّات للنسب الأربع أو عندما يعرض للقارئ بحث القسمة، أو في غير ذلك ممّا يزدحم به هذا السِّفر القيّم من تجديد البحث وجمال العرض وترابط الفكرة.

ويلمح الباحث في هذه الرسائل والكتب التي خلّفها الشيخ محمّد رضا المظفّر استقلال الفكر والنظر.

وكان يحسن بنا أن نشرح بعض النظريّات العلميّة التي اختصّ بها الشيخ في تفسير (الأمر بين الأمرين)، ومسألة اجتماع الأمر والنّهي وما شاكل ذلك، لولا أنّ صدر البحث يضيق بذلك.

ونحيل الباحث إلى أن يراجع (أُصول الفقه) أو (الفلسفة) ليلمس الجهد النظري الذي بذله الشيخ في تأليف الكتابين وسمات الاستقلال والشخصيّة فيما ينتشر بين دفتيهما من نظريّات.

وقد وجدت للشيخ المظفّر في مكتبته الخاصّة كتاباً قيّماً في تفسير القرآن الكريم وكتاباً في التعليق على خيارات المكاسب وآخر في المواريث ومجموعة من المقالات العلميّة والأدبيّة ومذكّرات لم تدخل المطبعة بعد.

شعره

كان الشيخ المظفّر يمارس النظم في شبابه بين حين

وآخر، وله شعر متين رقيق الديباجة، تجده منشوراً في بعض الكتب والصحف. ويجد القارئ فيه، كما نعرض عليه نماذج منه فيما يأتي صوراً شعريّة طريفة ويلتقي فيه بآفاق أدبيّة جديدة. وانصرف عنه بعد ذلك إلى غيره من الشؤون الفكريّة البنّاءة.

وننقل إلى القارئ صوراً من هذا الشِّعر الذي ذكرنا بأنّه يمثِّل جانباً من أيّام شبابه الأُولى:

فمن موشّحاته التي قالها بمناسبة قِران الشيخ جواد قسّام على طريقة المساجلة بين حمام الكوخ وهزار القصر ممّا تدلّ على يقظته وحسّه المُرهف وشاعريّته المُبكِّرة:

تضاحكت آفاقنا الضاحية
فلاطفتها خطرات النسيم
والحمد لله على العافية
حتّى الربا تزهو بثغر بسيم

* * *

وابتهج الروض بألوانه
فانفتقت تضحك أوراده
ودجلة فاض بطغيانها
فاستبشرت بالنور بغداده

وغرّد الطير بألحانه
فانفلتت تصفق أولاده
لكن بكسر الكوخ في ناحية
حمام كوخ في الظلام البهيم
يصرح في أصواته العالية
والطير يلهو بالهنا والنعيم

* * *

في جانب قام وفي جانب
قام هزار القصر فوق الغصون
يبسم هذا للضحى الآيب
وذاك يبكي لظلام السجون
يقول حكم القدر الغالب
قضى على لكوخ رهين الشجون
فأصبحت أربعنا خالية
وجفّت الكأس وخان النديم
وكم لنا من جنّة عالية
ومن زروع ومقام كريم الهزار

فقام مبهوتاً يحدّ النظر
إلى حمام الكوخ كيف احتبى
فقال ما أنت وهذي الفِكَر
فطر وذياك وسيع الربا
وفوقه أشرق نور القمر
والعصر عصر النور والكهربا
وخل عنك العصر الخالية
وما بها من نزعات القديم
فهل ترى للقوم من باقية
وأصبحت ديارهم كالصريم الحمام
هزار دعني وعقيم العنا
خوفي على صبابة في الوطاب
لقد أتينا اليوم من هاهنا
فكم أضلّ العصر هذا الشباب
وكم خدعنا فشرعنا القنا
ـ بمثل هذا ـ لجهاد العقاب
فصوحت أوطاننا الخالية
وقد فديناها بذبح عظيم

يـتـيـمـة الـدهـر هـي الـغـالـيـة

ولم يعر الذكر ـ أمّا اليتيم ـ الهزار

مـا كـنـت أدعـو لـغـيـر الـحـبـور

ونـبـذ تـلـك الـعـيـشـة الجـافـيـة

فـأيـن من كـوخـك زهـو الـقـصـور

وفـارهـات الـغـرف الـعـالـيـة

وأيـن مـن سـابـقـات الـزهـور

أعـجـاز نـخـل فـي الـثـرى خـاويـة

هـيّـا فـذي آفـاقـنـا الـضـاحـيـة

فـإنّ فـيـهـا نـهـجـك الـمـسـتـقـيـم

وكـم بـهـا مـن عـيـشـة راضـيـة

لـجـمـعـك الـيـوم وخـيـر عـمـيـم

وهكذا إلى أن تنتهي هذه الموشحة الرقيقة على هذا النسق من روعة الخيال والفكرة.

ومن شعره راثياً بعض العلماء الأعلام قوله:

جـفّ الـغـديـر فـلا زرع ولا ثـمـر

والـربـع لـقـوى فـلا عـيـن ولا أثـر

محافل كُنّ بالإيمان حافلة
من سامها غير أنّ الحقّ منتحر
وكم مجالس علم زانها أدب
مضت ولم يبق إلاّ ذكرها العطر
قضى الردى أن يبوح الدهر شرته
فيها فيخبو زناد كلّه شرر

* * *

أرض الغريّ إنّ بي خطأ بلغت به
من رفعة العلم ما انقادت له الغير
لا تطمئني لشيء طاب ظاهره
فالماء يصفو ولكن تحته الكدر
مضت شيوخك وهي الاسد يوم علا
وما انتفعنا بمن من بعدهم زأروا
قد كنت عاصمة الإسلام وانعكست
تلك القضيّة لولا الذُكر والصور
في كلّ يوم هلالٌ منكِ منكسفٌ
صفاؤه وظلام الحزن معتكر

مـضـى وكـلّ فـؤاد بـعـده ألـم
منّـا وكـلّ مـحـبٌ خـلـفـه نـظـر
مـضـى فـلاحَـت نـقـيـاتٌ مـآثـره
إنّ الكواكب خلف الشمس تنتشر

وهكذا حتّى تنتهي هذه القصيدة الغرّاء التي تقرأها مع كثير غيرها في شعراء الغري للشيخ علي الخاقاني والأدب الجديد للسيّد محمّد جمال الهاشمي وغيرها من الكتب التي عَنَت بترجمة الشيخ المظفّر.

ملامح من شخصيه العلميّة

ولابدّ ونحن نريد أن نختم هذا الحديث أن نشير إلى ملامح من شخصيّته العلميّة، بشكل رؤوس أقلام.

فقد مثّل الجامعة النجفيّة في الحفلات العامّة بكراجي بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على ولادة الإمام عليّ (عليه السلام) سنة 1957، كما مثَّل الجامعة النجفيّة في حفلات جامعة القرويّين بفاس (المغرب) بمناسبة مرور 11 قرناً على تأسيسها سنة 1960 وألقى بحثين هامّين من أروع البحوث، نشرت في مجلّة النجف ونشرته جامعة القرويين.

أُنيطت به سكرتاريّة منتدى النشر سنة 1354 هـ، ورئاستها سنة 1356 هـ، عمادة كليّة الفقه سنة 1387 هـ، وعضويّة المجمع العلمي العراقي سنة 1383هـ.

ألقى محاضرات علميّة قيّمة عن آراء صدر المتألّهين الفلسفيّة وحياة الشيخ الطوسي وفلسفة الإمام في النجف الأشرف وفي خارج النجف. نشر في كثير من الصحف والمجلّات العربيّة باسمه الصريح واسمه المستعار، كان منها (الهاتف)، و(النجف) بالنجف، و(الكحلاء) بالعمارة، و(العرفان) بصيدا، و(المرشد العربي) باللّاذقيّة، و(الفكر) ببغداد وغيرها.

قام بامتحان الطلبة بالاشتراك مع اخوانه العلماء من قِبل السيّد البروجردي، وكان هو من الذين حثّوا السيّد البروجردي على ذلك.

شهد له بالاجتهاد واستقلال النظر جمعٌ من كبار المراجع، نذكر منهم أُستاذه الأكبر الشيخ محمّد حسين الأصفهاني وأخاه الكبير الشيخ محمّد حسن المظفّر.

اصطدم فكريّاً على صفحات الصحف والمجلّات بكثير من أعلام الفكر، فجرى خلاف بينه وبين الدكتور أحمد أمين حول تشكيل مؤتمر يجمع بين آراء الشيعة والسُّنة على صفحات مجلّة الرسالة.

وجرى في الهاتف مرّة نقاش بين المظفّر والدكتور مصطفى جواد حول كلمة «فوضى» التي قال عنها المظفّر إنّه لا يجوز دخول الألف واللّام عليها، بينما قال الدكتور يجوز ذلك، واستلزم هذا الموضوع الأخذ والرّد على صفحات

الهاتف، وبعد مناقشة طويلة طلب الشيخ محمّد رضا من الدكتور مصطفى جواد أن يأتيه بالنصوص والدلائل التي قبلت دخول الألف واللّام على «فوضى»، فأجابه الدكتور بما مضمونه أنّه إنّما يرى الجواز فبمقتضى ما يستطيعه اجتهاداً. وهنا استراح المظفّر وقال: لِمَ لم تقل يا سيّدي أنّك ترى هذا الرأي بداعي الاجتهاد لأوفّر لنفسي مشقّة الأخذ والرّد منذ الساعة الأولى.

وعلى ذكر اللّغة فقد روى الأستاذ محمود شيت خطّاب وزير الشؤون البلديّة والقرويّة وعضو المجمع العلمي العراقي والشيخ محمّد رضا المظفّر من أعضائه أيضاً، قال إنّه تلقّى المجمع العلمي قبل مدّة وجيزة من مجمع اللّغة بمصر رسالة حول موضوع من المواضيع، وقد قرأنا الرسالة كلّنا وقرأها الشيخ محمّد رضا، ولكن المظفّر لفت نظرنا إلى ورود خمس أغلاط لغويّة في تلك الرسالة، وقال: إنّه «لم يكن من الأدب تسقط السهو والغلط في الرسائل التي تردنا لو لم يكن مصدر هذه الرسالة مجمعاً لغويّاً»[1].

التوجيه الاجتماعي

وطبيعة مركزيّة النجف الإسلاميّة والعالميّة تتطلّب منها أن تحدّد موقفها من القضايا السياسيّة والاجتماعيّة التي تجري في

(1) جريدة البلد، 25 ـ 2 ـ 1964.

العالم الإسلامي، ولا يمكنها بحكم هذه المركزيّة أن تقف من هذه القضايا موقف اللّا مبالاة واللّا أدرية. فلا يزال المسلمون في مختلف الأقطار الإسلاميّة يتوجّهون إلى النجف الأشرف فيما يتوجّهون إليه من المراكز الإسلاميّة لاستطلاع رأيها فيما يتعلّق بالأحداث وقضايا الساعة.

إلّا أنّ حساسيّة مركز النجف تتطلّب منها الحيطة والحذر في تحديد موقفها من هذه القضايا والأحداث. حتّى كان يعتبر البعض هذا التحفّظ والحيطة إزاء الأحداث صورة من اللّامبالاة والانطوائيّة. ولكن ما أقرب أن يتبدّد هذا الوهم عندما يلمس الباحث ملامح من تاريخ النجف السياسي والنضالي، فقد ساهمت النجف في غير واحد من الحركات السياسيّة التي اجتاحت البلدان الإسلاميّة وكان في كثير من هذه الحركات محور النشاط السياسي.

ولم تسلم جهة سياسيّة في تاريخ البلدان الإسلاميّة من تحديد مواقفها من الأحداث السياسيّة عن الانحراف والانزلاق كما قدّر ذلك للنجف في هذا المجال، مع العلم بأنّ النجف كانت تعيش بحكم مركزيّتها الدينيّة طيلة هذه المدّة في صميم الحركات السياسيّة والاجتماعيّة، ويرجع الفضل في ذلك كلّه إلى تلك الحيطة التي كانت تتّخذها النجف في كلّ خطوة من خطواتها أو نشاط من نشاطاتها الرائدة. وقد قامت النجف بحركات تحريريّة كبيرة في الوطن الإسلامي الكبير في الأدوار المعاصرة. ودَعت المسلمين إلى تبنّي هذه الحركات وساهمت

في كثير من الحركات التي كانت تقام في أرجاء الوطن الإسلامي وساندت المسلمين في صراعهم مع الاستعمال في كثير من المواقع.

ولكي نشير إلى مواقف النجف من الأحداث السياسيّة العامّة نستعرض بعض هذه المواقف في هذا الحديث:

1 ـ حادثة الأتراك:

حينما وقفت الدولة العثمانيّة بعد إعلان الحرب العالميّة الأُولى وجهاً لوجه أمام بريطانيا وحليفاتها وجدت النجف نفسها إزاء مشكلة ثنائيّة، فقد لاقى العراق طيلة الاحتلال العثماني ألواناً شتّى من الأهوال والإرهاصات، بالإضافة إلى أنّ الدولة العثمانيّة لم تكن لتمثّل الإسلام في شيء عدا الاسم وبعض المظاهر الجانبيّة. وقد كانت بريطانيا تعمل لتقليص ظلّ هذه الدولة من العراق، أمّا من الزاوية الثانية فقد كانت الدولة البريطانيّة دولة كافرة بما في هذه الكلمة من صراحة ووضوح، ولا يمكن أن تعمل هي لحساب العراق أو لحساب الإسلام بأيّ شكل من الإشكال وإن قدّر لها أنْ تزحزح الأتراك عن العراق فسوف تحتلّ هي مكانهم.

ومهما يكن من أمر فإنّ معاملة الأتراك أهون على المسلمين من معاملة الإنجليز. وكلّ ذلك كان يبعث علماء النجف الأشرف على مساندة الأتراك والوقوف أمام بريطانيا

وجهاً لوجه (ونهض علماء النجف وأفتوا بوجوب الدفاع عن بيضة الإسلام، فهاجت الشيعة لدفاع الإنجليز وانتظمت الجبهات الحربيّة ولم يكتف العلماء بذلك فقط بل خاضوا تلك المعامع بأنفسهم وكان أشدّهم جهاداً المرحوم العلّامة السيّد محمّد سعيد الحبوبي فإنّه قاد جيشاً جرّاراً إلى جبهة الشعيبة منظّماً من مجاهدين متطوّعين ومسوقين قسراً قد شملتهم الجنديّة، وكذلك العلّامة شيخ الشريعة والعلّامة السيّد علي «داماد».

ولم تمض مدّة حتّى ظهر الضعف في صفوف الأتراك وآلَ الأمر إلى انسحابهم عن العراق وقيام حكومة محلّية في النجف الأشرف. كما هو مفصّل في كثير من الكتب المعنيّة بمثل هذه المواضيع.

2 ـ ثورة النجف:

بعد حادثة جلاء الأتراك عن الأراضي العراقيّة أخذت بريطانيا تمدّ من سلطانها على المدن العراقيّة... وقد كانت تحكم النجف يومذاك حكومة محليّة امتدّت قرابة السنتين، فأغرى بريطانا بعض الزعماء ونفذت عن هذا الطريق إلى النجف، كما نفذت إلى غيرها من البلدان العراقيّة وبسطت نفوذها وسلطانها عليها. فتأسّست في النجف في هذا الوقت جمعيّة سريّة تحاول استرجاع الحكم من بريطانيا، تمهيداً لقيام ثورة إسلاميّة شاملة في أرجاء العراق.

وكان من أبرز أعضاء هذه الجمعيّة السيّد محمّد علي بحر العلوم والشيخ جواد الجزائري رحمهما اللّه.

إلّا أنّ بعض التصرّفات الفرديّة من قِبل بعض الزعماء أدّى إلى فشل الجمعيّة. وقد حاولت بعد ذلك إثارة الشعور الديني في العشائر المجاورة للنجف وتخليص النجف من الحكم البريطاني الغاشم، ولكن الزلّة الأُولى كانت كافية لامتداد فشل هذه الجمعيّة.

وحُكِمَ على السيّد محمّد علي بحر العلوم والشيخ محمّد جواد الجزائري بالنفي إلى الهند لكن تدخّل الشيخ محمّد تقي الشيرازي زعيم الثورة العراقيّة والشيخ خزعل حالَ دون تحقيق هذا الحكم[1].

3 ـ حوادث الثورة العراقيّة:

كانت الدولة البريطانيّة قد وعدت العراقيّين غير مرّة أثناء الحرب العالميّة أن يُترَك لهم الأمر بعد نزوح الأتراك عن العراق في تشكيل حكومة إسلاميّة مستقلّة، لا تتّصل بأيّ جهة استعماريّة، مهما كان شكلها.

كان من هذه الوعود تصريحات الجنرال «مود» غازي العراق، ومنها تصريحات الكولونيل «ولسن» الحاكم الملكي

(1) يراجع بتفصيل الحركة في (ماضي النجف وحاضرها)، مصدر سابق، ج1، ص245 ـ 249.

العام التي وجّهها إلى علماء النجف وأعيانهم برقيّاً.

وأخذت بوادر الخلف بالوعد تظهر من سير الانجليز في الحكم والإدارة، وأخذ الانجليز يحاولون نصب (كوكس معتمد الحكومة البريطانيّة في العراق رئيساً للحكومة العراقيّة).

كلّ ذلك أثار غضب العلماء فأصدر الإمام الشيرازي زعيم الثورة العراقيّة فتوى بعدم جواز انتخاب غير المسلم للقضيّة.

وزار الكولونيل «ولسن» النجف الأشرف لهذا الغرض ودعا فريقاً من العلماء وزعماء العشائر المجاورة، وكان ممّن حضر المجلس الشيخ جواد صاحب الجواهر والشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ عبد الرِّضا الشيخ راضي والشيخ محمّد رضا الشبيبي وجماعة من زعماء العشائر كالشيخ عبد الواحد سكّر ولفتة آل شمخي ومرزوك العوّاد ومجبل الفرعون وغيرهم.

وبعد أن أبدى (المجير نوربرى) رغبة بريطانيا وحلفائها في معرفة آراء العراقيّين فيما يخصّ مسألة الحكم والإدارة قام الشيخ محمّد رضا الشبيبي وقال: (إنّ الشعب العراقي يرتأي أنّ الموصل جزء لا يتجزّأ من العراق وأنّ العراقيّين يرون من حقّهم أن تتألّف حكومة وطنيّة مستقلّة استقلالاً تامّاً، وليس فينا من يفكّر في اختيار الحاكم الأجنبي).

وغاظ الحاكم البريطاني هذا الكلام الجريء وأخذ

يضرب بيديه على المنضدة التي كانت أمامه، وحاول أن يجد في الحاضرين من يختلف عن رأي الشبيبي فلم يمكنه ذلك.

وأفتى الإمام الشيرازي فيما بعد، وبعد أن استفحل الأمر وتجاوز حدّه (بوجوب الدفاع والثورة).

وكذلك انبثقت هذه الثورة الإسلاميّة في سائر أنحاء العراق يتقدّمها أعلام العراق من النجف وكربلاء. وتوفّى فيما بعد الإمام الشيرازي في كربلاء واستقلّ شيخ الشريعة الأصفهاني من النجف الأشرف بتوجيه الثورة.

ونجحت الثورة في تحقيق بعض المطالب الإسلاميّة التي كان يطالب بها العراق في ذلك الوقت. ولكن المخطّط الثوري لم يمتدّ مع الأسف إلى ما بعد أيّام الحرب ولم يتجاوز ميادين الجهاد، واستغلّت الجهات الاستعماريّة الكافرة هذا الفراغ الذي تركه هذا الإهمال وتوغّلوا من جديد في حياة الاُمّة العراقيّة المسلمة بشكل آخر.

ثورة المشروطة في إيران

ضاق الشعب الإيراني في عهد محمّد علي شاه القاجار بظلم الحكومة القاجاريّة. فقد كان الحكم القاجاري حكماً دكتاتوريّاً قاسياً، وكانت السلطة تتمركز في البلاط الملكي، والملك يتصرّف في مصالح الاُمّة وليس هناك من يحاسبه على تصرّفاته.

وثار الشعب الإيراني على هذا الوضع وطالبوا بتشكيل حكومة تساهم فيها الأُمّة في تقرير مصيرها، وساند العلماء من النجف الأشرف هذه الثورة الإسلاميّة على أن تتمّ صياغة الدستور في ضوء التشريع الإسلامي ويكون للعلماء إشراف على سير المجلس النيابي.

وكان المرجع الديني الكبير الشيخ محمّد كاظم الخراساني (الآخوند) يقوم في النجف بتوجيه الحركة ومعه طائفة من وجوه طلّابه كالمرحوم السيّد أبو الحسن الأصفهاني والمرحوم الميرزا محمّد حسين النائيني والسيّد هبة الدِّين الشهرستاني رحمهم اللّه.

وأصدر الشيخ النائيني في هذه الفترة بإشارة من الشيخ الخراساني كتاباً في وجوب المشروطة أسماه «تنبيه الأُمّة وتنزيه الملّة» كما أصدر غيره من الأعلام أبحاثاً خاصّة بهذا الموضوع.

وكانت مجلّة «العلم» التي كان يصدرها السيّد هبة الدِّين الشهرستاني في هذا الوقت تعتبر لسان الدعوة الناطق.

وقد نجحت حركة المشروطة ونزل الشاه عند رغبة العلماء الأعلام، لكن العلماء لم يمدّوا ثورة المشروطة بالإمداد الفكري الكافي بعد نهاية الثورة، واستولى رضا بهلوي على الأمر ورجع الحكم إلى أسوأ ممّا كان عليه في عهد القاجار.

دور المظفّر في التوجيه الاجتماعي

وفقيدنا الكبير الشيخ المظفّر رحمه اللّه كان امتداداً طبيعيّاً للبيئة النجفيّة في صراعه الدائم مع الاستعمار وسعيه المتواصل في التوجيه الاجتماعي وكفاحه الإسلامي المستمرّ.

وقد عاش كثيراً من هذه الحركات، ولم يعاصرها فحسب والتأم بها فكريّاً وعاطفيّاً، وصار جزءاً من كيانه. يهمّه من أمرها ما يهمّه من أمر نفسه.

وساهم في القضيّة العراقيّة مساهمةً فعّالة في طليعة الشباب الذين تبنّوا القضيّة، وعانا من فشلها ما يعانيه الإنسان من فشل تجاربه الحياتيّة الخاصّة وتأثّر فكريّاً وعاطفيّاً.

وكان يعيش هذه الأحداث كما لو كانت جزءاً من كيانه الخاص ويمتزج بالثورات والدعوات الإصلاحيّة حتّى يكاد أن ينكر ذاته في البين.

ولم يشعر يوماً من الأيّام أنّه يعيش وحده، في عزلة اجتماعيّة في زاوية من بيته المتواضع أو جانب من مؤسّسة منتدى النشر، بل كان يشعر دائماً بوضوح وقوّة أنّه جزء من الاُمّة الإسلاميّة يعنيه ما يعنيها من أمره ويمسّه ما يعرض لها من سوء.

محنة فلسطين والجزائر

وكان يجد في محنة فلسطين والجزائر محنة النفس الكبيرة التي تضيق بمثل هذا العداء السافر، وكان يقاسي وهو في بيته أو على مكتبه الخاص في منتدى النشر آلام المسلمين في الجزائر وفلسطين ويتحدّث لمن حوله عمّا يخالج نفسه من شعور أزاء هذه المحنة بين جوانحه أكثر ممّا يعيشها المسلمون هناك. وقد تجلّى ذلك أكثر في كتاباته في حقل «اسمعني» المنشورة في بعض المجلّات. وفي البرقيّات التي طيّرها إلى بعض الجهات الدوليّة المعنيّة.

محنة مصر

وفي سنة 1956 حدثت محنة مصر المعروفة، وواجهت مصر الإسلاميّة العدوان الثلاثي الأثيم وجاهدت جهاد الأبطال، بعد أن تحمّلت الشيء الكثير من الخسائر في الأرواح والأموال ووقفت إلى جنبها البلدان الإسلاميّة لتعبّر عن شعورها الإسلامي إزاء هذا العداء السافر.

وكان وقع المحنة شديداً على المسلمين في جميع أقطار العالم الإسلامي وكان الاستياء عامّاً في صفوفهم.

وكان الشيخ المظفّر يعاني هذه المحنة في نفسه الكبيرة التي أخذت تضيق بهذه الوحشيّة السافرة، وهو لا يملك شيئاً للدفاع عن حقوق اخوانه المؤمنين في مصر غير الدُّعاء

والابتهال إلى اللّه بالنصر والغلبة، وقد أبرق رحمه اللّه البرقيّة التالية إلى أخيه شيخ الأزهر وبعض الجهات السياسيّة:

بسم اللّه الرحمن الرحيم، محافل النجف الأشرف تعجّ صارخةً إليه تعالى بدعائها لإنقاذ مصر المسلمة، وتبتهل إليه أن يأخذ بناصركم ويرفع لواءكم، والقلوب تقطر دماً من الاعتداء الصارخ الذي تقوم به وحشيّة أعداء الإسلام والإنسانيّة. والمسلمون في جميع البلاد يدٌ واحدة في شدّ أزركم.

تشرين الثاني 1956
عميد كلّية مندى النشر

محنة المدّ الشيوعي وتجربة جماعة العلماء

وينقلب الحكم في 14 تموز بين عشيّة وضحاها وينفذ الشيوعيّون إلى الحكم ويضعوا أيديهم على مصالح البلاد ويمتدّ سلطانهم إلى سائر المرافق والجهات وينتشر الإرهاب الشيوعي بصورة فضيعة ويمتحَن المسلمون امتحاناً عسيراً في إيمانهم بهذا الدِّين، وينجرف معهم مَن هانَ عليه دينه، ويصمد أمامهم مَن عزّت عليه عقيدته.

ويقدّر اللّه للشيخ المظفّر أن تتّصل به أسباب الحياة ويدرك هذه الفترة الحالكة من تاريخ العراق، ويساهم مع المجاهدين من المؤمنين في إجلاء هذه الفتنة.

يعاني بنفسه هذه التجربة الجديدة بما فيها من مرارة

وقسوة، ثمّ يجد في هذه التجربة القاسية ملامح الضعف في الدعوة، والخطأ في السلوك نحو التوجيه ـ وعزّ من لا يخطأ ـ ولا جدوى في اللّوم والعذل فيشمّر عن ساعد الجدّ لتصحيح أخطاء الماضي ومل فراغات الدعوة بجدٍّ ومثابرة لا يعرفان الملل، ويحاول أن يعالج الدّاء بعد أن استفحل أو كاد، بصورة سريعة قبل أن يسري إلى سائر أجزاء البلد الإسلامي العزيز. فيجتمع مع الآخرين من إخوانه العلماء المجاهدين ويجتمعون إليه يتحدّث إليهم ويتحدّثون إليه. وتتمخّض هذه الأحاديث والاجتماعات عن (جماعة العلماء) ويكون الشيخ المظفّر من أبرز أعضائها العاملين فيعقدون الاجتماعات السريّة والعلَنيّة ليضعوا منهاجاً للعمل وليصمدوا أمام التيّار الشيوعي وليردّوا إلى المسلمين بعض الأمن الذي سلبه الشيوعيّون. وقد لاقى عملهم هذا رقابة شيوعيّة قاسية، ويكلّل اللّه العمل بالنجاح ويجتمع العلماء على مقاومة التيّار ومن ورائهم جماعة العلماء الأفاضل ومن ورائها المسلمون.

وتنشر جماعة العلماء نشرتها الأُولى فيتلقّفها المسلمون وتتوالى النشرات وتعقبها الكتب وتتلوها الاحتفالات الإسلاميّة الهامّة وتضطرّ الشيوعيّة أن تتراجع أمام هذا الزحف المقدّس وينحسر ظلّ الشيوعيّة البغيض عن هذا البلد ويؤوب المسلمون باطمئنان إلى ظِلال الإسلام الوفيرة، بعد أن حاولت الشيوعيّة أن تكدره عليهم بمحاولة فاشلة.

وتعود الجماعة إلى عملها المعتاد، بعد أن قطعت هذا

الشوط في مقاومة التيّار الشيوعي محمّلة بتجارب ضخمة في الدعوة والعمل.

وكان المدّ الشيوعي فتنة امتحن اللّه بها المسلمين في هذه الفترة من الزمن، ولكنّها عادت عليهم بالخير بما حمّلتهم من تجارب وبما صحّحت من أساليبهم في العمل.

وقدّر للشيخ المظفّر رحمه اللّه أن يساهم في هذا العمل الضخم ويواكب الموكب المظفّر في جميع خطواتها، ويجني بنفسه ثمار الظّفر ويرجع إلى (كلّية الفقه) ليموّنها بما أفادته هذه المحنة من تجربة في العمل والدعوة.

محنة الأحوال الشخصيّة

ولم تنجل هذه المحنة عن هذا الشعب المسلم إلّا لكي تعود إليه بصورة أُخرى، فقد حاول عبد الكريم قاسم بإيحاء من المستعمرين إقصاء الدستور الإسلامي عن الأحوال الشخصيّة، بعدما تمّ لهم ذلك في مجالات الحياة العامّة من سياسيّة وحكم واقتصاد.

وقرّر الطاغية أن يقوم بهذه المهمّة ويلجأ المسلمين إلى القوانين الكافرة فيما يمسّ شؤونهم الشخصيّة من طلاق وزواج وميراث وما إلى ذلك من الأحوال الشخصيّة، ونفذ القرار وصدر قانون الأحوال الشخصيّة بهذه الصورة.

وواجه العلماء هذه المحنة الجديدة، بعد تجربة الإرهاب

الشيوعي، بإيمان وقوّة لا يشوبه ضعف أو تردّد، وأبرقوا إلى الجهات المختصّة بمخالفتهم لهذا القرار ومنافاته الصريحة للدستور الإسلامي وأثاروا الرأي الإسلامي العام في العراق وفي غير العراق وأنذروا الحكّام بما وراء هذه الأعمال من العواقب السيّئة.

وساهم الشيخ المظفّر في هذه الحركة مع أعلام الفكر والجهاد في النجف الأشرف بعد أن أدرك خطورة هذا العمل بالنسبة إلى الدستور الإسلامي والحياة الإسلاميّة، وأرسلت الكلّية بإيعاز منه تقريراً مفصّلاً إلى الدولة تشرح فيها بعض وجوه الاختلاف بين قانون الأحوال الشخصيّة والدستور الإسلامي، نشرت في وقته في مجلّة النجف.

وأبرق عدّة برقيّات إلى رجال الحكم والإدارة ينذرهم سوء العاقبة، نذكر منها البرقيّة التالية التي نشرت فيما بعد على صعيد واسع:

بسم اللّه الرحمن الرحيم «لقد اطّلعنا على قانون الأحوال الشخصيّة فوجدناه يصطدم في كثير من موادّه بالقانون الإسلامي المقدّس وبنصوص القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، فأسفنا أن يُشرَّع مثل هذا القانون، ولا سيّما في العراق البلد الذي يرجع إليه المسلمون أجمع في تعرّف أحكام الإسلام الحنيف وتشريع القرآن الكريم، فكان الجدِّير بقانون الأحوال

الشخصيّة أن يكون صدى لصوت القرآن ونسخة مطابقة لأصل قانون الإسلام لا يحيد عنه، فالمأمول من سيادتكم إصدار الأمر بتعديله على وجه يطابق القانون الإسلامي».

محمّد رضا المظفّر
النجف الأشرف
مع ثلاثة من الأعلام الآخرين

محنة إيران المسلمة

ولا تسلم إيران المسلمة من هذه المحنة التي امتحن اللّه بها المسلمين في هذه الفترة من تاريخهم، فتقرّر الحكومة الإيرانيّة أن تلغي الدستور الدائم وتضع بعض القوانين الجائرة بشكل لا يتلائم والتشريع الإسلامي.

وكانت الحكومة تهدف من وراء ذلك التلاعب بما تبقّى من ملامح الدستور الإسلامي في بنود القانون. فيثور العلماء في إيران بوجه الدولة ويثيرون الرأي العام، وتصرّ الحكومة بدورها على الاستمرار في العمل ويلقى القبض على علماء قم المقدّسة المعارضين والمجاهدين في ظلمات السجون بقسوة متناهية وتواجه الآخرين بالتهديد والإرهاب.

ويقف علماء النجف الأشرف في وجه الحكومة الإيرانيّة من النجف يطالبون بتحقيق مطالب العلماء والإفراج عنهم وإنهاء هذه الأعمال اللّا إنسانيّة ويبرقون إلى رئيس الدولة

والجهات السياسيّة عشرات البرقيّات، يصرّون على مطالبة الحكومة بذلك، وينوّرون الرأي العام الإسلامي من النجف بما يحدث في إيران المسلمة وبما يجري على اخوانهم المجاهدين من علماء إيران.

ويقدّر للشيخ المظفّر رحمه اللّه، وهو يعيش المحنة الجديدة بنفسه أن يساهم في هذه الحركة، ويجتمع مع العلماء في النجف الأشرف، في بيته العامر أو في غير بيته وليدرس المشكلة دراسة معمّقة ويخطّط العمل ويسعى لإنقاذ الموقف في إيران ومواصلة اخوانه من العلماء المجاهدين في هذا البلد الإسلامي العزيز بما يسعه من المواصلة. وكان يكتب بنفسه كثيراً من النشرات التي صدرت عن النجف في هذه الفترة ويوشحها بتوقيعه الكريم، فيمن يوقّع من أعلام الفكر والجهاد في النجف الأشرف.

التحديد بين الإيجاب والسلب

مهما حاولنا أن نبالغ في ضرورة تحديد الموقف من الأحداث والقضايا الاجتماعيّة، فليس هو العمل كلّه. والمهمّ بعد تحديد الموقف أن يتّخذ الإنسان موقفاً إيجابيّاً من الأحداث الاجتماعيّة ولا يكفي أن يتّخذ الإنسان موقف (الرفض)، و(السلب) من الانحراف الفكري إذا كان يحمل اتّجاهاً عقائديّاً خاصّاً.

والموقف السلبي إزاء الاتّجاهات الفكريّة المنحرفة وإن كان لوناً من ألوان تحديد الموقف إلّا أنّه تحديد ميّت، لا ينبض بالحياة ولا ينهض بالاتّجاه العقائدي الذي يحمله صاحبه.

وحينما تحكم النجف بشيء أو تحدّد موقفها من وضعيّة اجتماعيّة خاصّة فإنّها تحكم باسم الإسلام وتحدّد موقف الإسلام من تلك الوضعيّة.

وهذه العمليّة الخطيرة تتطلّب من الحيطة في الحكم ما لا تتطلّبه أيّة عمليّة اجتماعيّة أُخرى.

ولا يسلم الإنسان في الغالب، مهما أُوتي من نظر وحكمة عن الخطأ والانحراف في الحكم، ما لم يدرس الوضعيّة الاجتماعيّة وما يحفّها من الملابسات.

والأحداث السياسيّة، ولا سيّما ما يتّصل منها بقضايا الساعة محفوفة في الغالب بملابسات خفيّة، لا يتيسّر للمرجع الديني أن يحدّد موقف الإسلام منها بنظرة مستعجلة وحكم مرتجل.

وهذه الملاحظة كانت تدعو النجف كثيراً إلى التحفّظ من التسرّع في الحكم في أمثال هذه القضايا.

والإيجابيّة هي السبيل الوحيد للعمل المثمر والدعوة البنّاءة التي تنبض بالحياة، والتي تواكب التطوّر الإنساني في جميع خطوطها.

والانحراف مهما كان نوعه، لا ينشأ غالباً إلّا عن (الحاجة) ولا تقف هذه الحاجة عند حدٌّ خاصّ، **فهي في** تطوّر مستمرّ ويسر متواصل، تتطلّب الإشباع بإلحاح، والوضعيّة الاجتماعيّة المحافظة لا تفي بإشباع الحاجات الإنسانيّة المتطوّرة، عندما تجمد في إطار اجتماعي خاص.

فإن لم يوات الحاجة الإنسانيّة المتطوّرة تطوّر مماثل في الوضعيّة الاجتماعيّة في الاتّجاه الصحيح فإنّ الإنسان يلتجأ إلى أن يشقّ طريقه بخطٍّ منحرف، ويدفع الوضعيّة الاجتماعيّة في اتّجاه مخالف فيه التواء كثير.

فالانحراف في الغالب، تعبيرٌ ملحّ عن الحاجة الإنسانيّة.

وفي كلّ اتّجاه فكري منحرف عنصران يعبّر (الأوّل) منهما عن الحاجة التي يعانيها الإنسان في نفسه ومجتمعه، ويعبّر (الثاني) منهما عن جهل الإنسان بالخط الصحيح الذي يواكب حاجاته المتطوّرة.

وقلّما تحدث دعوة جديدة أو فكرة حديثة منحرفة يستجيب لها الناس من دون أن تضمّ هذين العنصرين، فلا يمكن أن تتلقّى استجابة من الناس، ولا يمكن أن يعرض الداعية نفسه للدعوة، مهما كانت البواعث التي تحمله على هذا العمل. فلابدّ لكلّ عرض من طلب مماثل، وإذا كان العرض لا يلاقي استجابة وطلباً من الجانب المقابل، فلا يقدّر له أن يتقدّم خطوة إلى الإمام.

وفي ضوء هذا التعريف لا يكفي أن يتّخذ الإنسان موقفاً سلبيّاً من الاتّجاهات الفكريّة المنحرفة أو الأحداث السياسيّة وقضايا الساعة.

والنظرة السلبيّة التي تتمثّل في (الرفض) و(المنع) تنصبّ على عنصر الانحراف والجهل في القضيّة السياسيّة في الوقت الذي تهمل فيه عنصر الحاجة الباعثة على هذا السلوك المنحرف.

وجذور المشكلة كامنة في الجزء الأوّل، وليس في الجزء الثاني، أي استجابة لهذه الحاجة بصورة غير صحيحة.

ولا تكفي معالجة المشكلة في هذا الجزء بالمنع والرفض، ما لم تتزحزح الحاجة عن موقعها من النفس والمجتمع، وما لم تجد هذه الحاجة إشباعاً مماثلاً على الخط المستقيم.

والعلاج الصحيح في هذه المسألة ـ عوض النفي والرفض ـ إيجاد اتّجاه جديد يواكب الحاجات الإنسانيّة المتطوّرة في ضوء تعاليم الإسلام إزاء الاتّجاهات الاُخرى، والاستجابة للحاجات الإنسانيّة في شكلها المتطوّر على الخط الإسلامي العام.

وفي هذا الاتّجاه الجديد يجد الناس تلبية صحيحة لحاجاتهم وصيانة عن الانحراف والانزلاق، وترفّعاً عن الابتذال الذي لا يليق بالإنسان.

فمن الخطأ أن يعاكس الإنسان، وهو فردٌ ضعيف، أو مجموعة من الأفراد تيّار الماء الجارف، عندما ينحرف عن الاتّجاه الصحيح.

و إذا قدّر له أن يعاكس التيّار لفترة من الزمن ويتّخذ منه موقف السلب والنفي، فلا يتاح له، مهما أحسنّا به الظنّ، أن يستمرّ في مثل هذا الوضع السالب مدّة طويلة من الزمن، حيث لا يمرّ عليه حين حتّى تنهكه هذه المقاومة السلبيّة التي لا تنمّ عن إدراك صحيح لواقع المشكلة ووعي لملابساتها، وينجرف مع التيّار بعد أن نفذت طاقته في المقاومة.

ولو كنّا نحسن فهم واقع المشكلة، ونعي ملابساتها، لعلمنا أنّ المشكلة لا تكمن في (الانحراف) وحده، لنتّخذ منه مثل هذا الموقف السالب، بل إنّ جذور المشكلة تكمن في دفع التيّار الذي لا يمكن أن يرجع إلى الوراء ولا يمكن أن يقف عند حدّه.

والعلاج الصحيح هو تعديل المجرى مع المحافظة على (دفع المجرى) إلى الخطّ الصحيح، وليس في مقاومة التيّار أيّ نفع غير الإنهاك والانجراف مع التيّار.

والمشكلة التي نعيشها ليست مشكلة (التحديد) و(اللّامبالاة) فإنّ طبيعة موقع النجف الأشرف من العالم الإسلامي يتطلّب منها أن تحدّد موقفها بشيء من الاحتياط من أحداث السياسة وقضايا الساعة، ولا يتاح للنجف أن تقوم من

هذه الأحداث والقضايا موقف اللّا مبالاة، بل المشكلة تكمن في فهم الواقع الاجتماعي وما يحفّه من الملابسات، وما يطرأ عليه من الأحداث، وما يصلح له من فنون العلاج.

وفي تاريخنا المعاصر يلمح الباحث ملامح من هذه السلبيّة خلال الأدوار المشرّفة التي قام بها المجاهدون في تحرير الأُمّة الإسلاميّة من ذلّ الاستعمار وعبوديّة الجاهليّة، ومن خلال التجارب المريرة التي عانا منها المسلمون في الصراع مع الجهل والاستعمار.

وقد كادت هذه السلبيّة تؤدّي إلى الفشل في بعض الأحيان، وتقدّم أتعابنا وجهودنا لقمة سائغة لاستغلال الآخرين في حين آخر.

ونحن نستعرض أمثلة على ذلك من الأمس المنصرم لا نريد أن نسترجع ذكريات الأمس المُرّة، ولا نحاول أن نحاكم الرجال الأفذاذ الذين تولّوا الصدارة والمرجعيّة الدينيّة والنشاط الإسلامي في ذلك الدور من أدوار التاريخ المعاصر.

فقد كانت تكتنف ظروفهم الاجتماعيّة من الملابسات الخفيّة ما يبرّر لهم مثل ذلك الموقف من الأحداث الاجتماعيّة، وقد توجد عوامل أُخرى تغيب عنّا، ولا تصحّ المحاكمة الغيابيّة ما لم تتوفّر لدى الباحث معرفة العوامل التي تدخّلت في القضيّة بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

فنحن إذ نستعرض ملامح هذه السلبيّة في التفكير والنشاط

الاجتماعي لا نحاول أن نستعيد الماضي بما كان يحفّه من ملابسات وتجارب، وإنّما نريد أن نصحّح خطواتنا في ضوء من تجارب الماضي، في يومنا الحاضر.

لقد لمس الاستعمار، منذ عهد ليس ببعيد أنّه لا يستطيع أن يحافظ على مصالحه الاستعماريّة في البلدان الإسلاميّة ما لم يتراجع الإسلام، وما لم يزحزح هذه العقيدة عن نفوس المؤمنين فلا يمكن أن يسمح الإسلام وهو يحكم بلاده أن ينفذ الاستعمار في البلاد ويضع يديه على مصالح المسلمين وثمرات بلادهم.

وأدرك الاستعمار أن لا حيلة له مع الشيوخ والشباب الذين نشأوا على هذه العقيدة، والسبيل الوحيد للعمل هو الاهتمام بتوجيه الناشئة توجيهاً لا إسلاميّاً في مدارس خاصّة، تفتح لهذا الغرض، وما زلنا نتذكّر كلمة (مس بل) في هذا الصدد: «إنّ رجال الدِّين كانوا من أكبر دعاة الثورة في العراق خلال الحرب العالمية الأُولى وبعدها، وهذا ممّا دعا رجال الحكم إلى إنشاء المدارس الحديثة لكي يضعفوا بها الدِّين في نفوس الجيل الجديد ويقتلعوا بذلك جذور الثورة من أساسها»[1].

وقد أدرك العلماء يومذاك خطورة الموقف الجديد فدعوا

(1) الوردي، د. علي، وعّاظ السلاطين، ص398.

المسلمين إلى مقاطعة المدارس الرسميّة وإلى مقاومة التيّار الاستعماري الجديد، وقد أوشكت هذه الخطّة أن تموت في مهدها ولا ترى النور، لولا أنّ فكرة المقاومة استمرّت في إطارها السلبي ولم تتجاوز حدود الرفض والمنع.

وبقت الدراسة والتربية في بعض البلدان الإسلاميّة مهنة يباشرها بعض الكتاتيب بأساليب قديمة بالية، تذكّر الإنسان بأساليب التربية والتعليم في القرون الوسطى.

ولم يحاول أحد توسعة مناهج التربية والتعليم وتطوير أساليب الدراسة والتربية ومواكبة التطوّر التربوي والدراسي في العالم.

فلم يمض حين من الزمن حتّى اكتسح سيل التجديد والتطوير في أساليب التربية والتدريس كلّ هذا الجهد، والتجأ المسلمون إلى أن يرجعوا إلى أحضان هذه المدارس بما تحمل من مفاهيم وأفكار بعيدة عن آفاق الفكر الإسلامي.

وظهرت بوادر الاستعمار في البلاد الإسلاميّة، فوقف علماء النجف الأشرف أمام الاستعمار، وجهاً لوجه، واشتدّ الصراع بين العلماء والاستعمار ونجح المسلمون في القضاء على الاستعمار بعد صراع طويل، لكن المقاومة لم تتجاوز حدود الصراع والجهاد ولم تدخل دور التكوين والتخطيط، وبقى المسلمون يعانون في حياتهم الاجتماعيّة من فراغات هائلة، واستطاع الاستعمار أن ينفذ مرّة جديدة في البلاد

الإسلاميّة عن طريق هذه الفراغات، يسترجع منها مراكزها الاستراتيجيّة والدبلوماسيّة، وأن يملأ هذه الفراغات عن طرق غير مشروعة.

ولم يخف هذا الطابع السلبي في تأريخنا المعاصر على دعاة الإصلاح والفكر في النجف الأشرف وما يتّصل بها من مراكز الفكر الإسلامي، فقام دعاة الإصلاح هنا وهناك يدعون إلى تهيئة الأجواء لمواكبة الأوضاع الاجتماعيّة وتخطيط الحياة الاجتماعيّة بالشكل الذي يملأ على المستعمر أيّ فراغ من الفراغات الهائلة التي نعانيها في حياتنا المعاصرة.

وتنفيذاً لهذه الخطّة قام هؤلاء بتجربة تأسيس مدارس ابتدائيّة ومتوسّطة وثانويّة تدرّس فيها مناهج المعارف، بالإضافة إلى المناهج الإسلاميّة، وتُجاري المدارس الحكوميّة في شكلها ومحتواها وتطوّرها وتوسّعها، في الوقت الذي تحافظ فيها على جانب التوجيه الإسلامي.

«وفي سوريا تبنّى هذه الدعوة الإيجابيّة السيّد محسن الأمين فأسّس في الشام مدارسه المعروفة باسمه والتي ما تزال قائمة تؤدّي رسالتها الإصلاحيّة، وتبنّاها السيّد شرف الدّين في لبنان فأسّس لها المدارس الجعفريّة (بصور) فأخضعها للمناهج الحديثة وأحاطها بعنايته وتوجيهه»[1].

(1) محمّد تقي الحكيم: تمهيد وتقديم النص والاجتهاد، ص25.

وفي إيران تبنّى الفكرة الشيخ عبّاس علي الإسلامي ففتح المدارس الإسلاميّة، وقد لاقت هذه المدارس إقبالاً منقطع النظير من قِبل الناس وانتشرت في المدن والقرى بصورة واسعة.

وفي النجف الأشرف تبنّى الفقيد الشيخ محمّد رضا المظفّر لأوّل مرّة هذه الفكرة وحاول تحقيق هذه المهمّة بما أُوتيَ من إمكانات واسعة.

وقد لاقى الشيخ المظفّر في هذا السبيل كثيراً من العناء وبذل من نفسه الشيء الكثير حتّى كاد أن ينسى نفسه في سبيل الوصول إلى الغاية. وقد كان يشرف على سير التدريس بنفسه في المدارس الابتدائيّة والثانويّة، ومن دون أن يشعر بذلك هواناً على نفسه، وكان يتّفق أن يباشر التدريس في بعض الصفوف الأوّليّة من الكلّية وهو يحمل شهادة الاجتهاد ويزاول التدريس العالي.

كانت هذه المهمّة من جملة الأسباب التي دَعت الشيخ المظفّر إلى تأسيس جمعيّة منتدى النشر. ففي المادّة الرابعة من نظام الجمعيّة مقاصد المنتدى تعميم الثقافة الإسلاميّة والعلميّة والإصلاح الاجتماعي بواسطة النشر والتأليف والتعليم وغير ذلك من الطرق المشروعة[1].

(1) نظام جمعيّة منتدى النشر، 1370هـ، ص23.

وقد قدّر للشيخ المظفّر في هذا السبيل أن يحظى بشيء كثير من التوفيق يتخلّله الفشل، ويخالطه الإخفاق، ولا يفتر شيء منهما من عزيمة الشيخ المؤسّس رحمه اللّه تعالى.

«فمن أهمّ الأعمال التي توجّه إليها تأسيس المدارس الدينيّة إيماناً منه بأنّ تربية الناشئة تربية دينيّة وتوجيههم إلى العلم والأخلاق الفاضلة من أفضل الواجبات المفروضة على الرجل الدّيني في هذا العصر، وخير السُبل القويمة لتحقيق أهدافه الإصلاحيّة في نشر الثقافة الدينيّة وبعث الروح الإسلاميّة في النفوس وتقويم الأخلاق ومقاومة روح التمرّد التي جلبتها النهضة الغربيّة الحديثة الاستعماريّة بقصد الاستيلاء على معنويات البلاد الإسلاميّة وتحطيم القوى الكامنة في نفوس المسلمين حتّى خلقت من تلك النفوس الأبيّة عبيداً لأغراض الاستعمار من حيث يشعرون ولا يشعرون، وحتّى لم يبق من الإسلام إلّا اسمه ومن عزّة الإيمان إلّا خيالها.

وقامت محاولات في تأسيس المدارس على اختلافها عالية وابتدائيّة فنجح في بعض وفشل في بعض، وليس في ذكر مواطن الفشل من حزازة على مؤسّسة تريد الخدمة الخالصة فتوضع العراقيل في سبيل محاولاتها»[1].

وفي سنة 1357 تأسّس صف لدراسة العلوم العربيّة

(1) نظام منتدى النشر، ط2، سنة 1370، ص ز، ح.

والمنطق والفقه والأدب العربي وبعض الفروع الأُخرى واستمرّ إلى آخر السنة وكان نجاحه ممّا شجّعه أن يفتح في السنة 57 / 58 الدراسيّة ثلاث صفوف وقد نجح هذا المشروع في تلك السنة وبلغ طلّابه 150 طالباً وحصل في خلال السنة اعترافاً من وزارة المعارف، وهو أوّل اعتراف تعطيه الوزارة لمدرسة دينيّة، واعتبر هذا من بشائر النجاح للمشروع، غير أنّ وزارة المعارف بعد خمسة أشهر من الاعتراف عدلت فألغت اعترافها فأحدث هذا الإلغاء رجّة عنيفة في الأوساط الدينيّة بالنجف، وكادَ أن يقضي هذا الإلغاء على مشروع الدراسة لولا أنّهم حصلوا على الاعتراف ثانياً بعد سنة.

وقد تمّ له في سنة 1364 بقوّة الاستمرار أن يفتح أربعة صفوف باعتبارها قسماً متوسّطاً للعلوم الدينيّة مع صف تحضيري قبلها. وفي سنة 1357 هـ حاول برغبة جماعة من أعيان البصرة أن يفتح فرعاً له هناك وفشلت المحاولة لأسباب موضعيّة.

وفي سنة 1361 هـ قدّم جماعة من وجوه الكاظميّة طلباً بفتح مدرسة ابتدائيّة دينيّة باسم مدرسة منتدى النشر الدينيّة واستصدرت من وزارة المعارف إجازة فتح المدرسة وقد نجح هذا الفرع نجاحاً باهراً.

ولهذا الفرع قسمان نهاري ومسائي وكلّ منهما في ستّة صفوف.

وفي سنة 1362 هـ قدّم جماعة من وجوه الحلّة وبعض رجال الدِّين فيها طلباً بتأسيس فرع لمدرسة عالية للعلوم الدينيّة في بلدة الحلّة فأمعنت الجمعيّة في تحقيق هذه الفكرة غير أنّ معارضة محليّة غير منتظرة شوّشت على القائمين بالعمل.

وفي سنة 1363هـ نشأت فكرة تأسيس مدرسة ابتدائيّة دينيّة بالنجف لتزوّد المدرسة المتوسّطة بمتخرّجيها، وما تزال هذه المدرسة تؤدّي رسالتها.

وقد اُلغيت بعد ذلك متوسّطة منتدى النشر وتجدّد فتحها كما قدّمت جمعيّة منتدى النشر برئاسة الشيخ المظفّر اقتراحاً إلى وزارة التربية والتعليم بفتح إعداديّة إسلاميّة تعدّ الطالب للدراسات الإسلاميّة وللعلوم العربيّة، وقامت هي بتأسيس هذا الفرع في بنايتها الخاصّة واعترفت بها وزارة التربية والتعليم وباشرت بمهمّة التعليم في الفرع ابتداءً من سنة 1383 هـ.

وبناية منتدى النشر تضمّ في الوقت الحاضر مدارس أربع ابتدائيّة ومتوسّطة وإعداديّة وكليّة يهيء السابق منها الطالب للمدرسة التي تليها.

سير الإصلاح داخل الحوزة

ومهما تحدّثنا عن مكانة النجف العلميّة والاجتماعيّة ومركزها الديني في العالم الإسلامي فهي كأيّ كائن آخر بحاجة إلى أن تتطوّر، بنفسها، مع الزمن، تواكب مسيرة

الحضارة الصاعدة، في خطواتها، ليتاح لها أن تحتفظ بمكانتها العلميّة والاجتماعيّة وليقدّر لها أن تستثمر هذه المكانة في مجالات التثقيف والتوجيه الاجتماعي في ضوء من تعاليم الإسلام.

ولذلك وجدنا في الاستعراض السريع الذي قمنا به في هذه الدراسة أنّ مدرسة النجف الأشرف لم تتخلّف طول هذه المدّة الطويلة عن مواكبة الحضارة الفكريّة ولم يبدو على هذه المدرسة أنّها كانت تحاول أن (تجرّ نفسها) يوماً من الأيّام مع الموكب الضالع، من غير أن تجري هي بذاتها مع الأحداث أو تسبق الحضارة في هذا الخط.

وقد يلمح الباحث مع ذلك في الحياة الفكريّة في النجف شيئاً من الانكماش والانطواء على الذات في بعض الأطوار، ولكن لا يجد في شيء من ذلك ما يدلّ على التخلّف والتأخّر.

ولا ننكر وجود التخلّف الفكري في الحياة الفكريّة في النجف، في بعض الأطوار، إلّا أنّنا لا نجد وجهاً لتعليل الانطوائيّة في الحياة النجفيّة بالتخلّف الفكري. فقد تنشأ الانطوائيّة، بعكس ما يبدو لكثيرين، عن التقدّم الفكري، والسبق الحضاري، وفي هذه الحالة لا يجد الإنسان الوضعيّة الفكريّة الملائمة للاندماج، فيتراجع إلى نفسه وينطوي على ذاته.

فلا أجد على وجه المثال ما يبرّر تفسير انطواء النجف

على ذاتها بالتخلّف الفكري في الدراسات الفقهيّة والأُصوليّة، مع ما تبدو عليه من التوسّع الهائل والعمق والضخامة، ولا أُريد أن أُبرّر مثل هذا الانكماس في المدرسة النجفيّة، فإنّ الانطواء على الذات مهما كانت أسبابه يؤدّي إلى العزلة والانفصال عن المجتمع ومن ثمّ الموت، إذا لم تحاول أن تدمج نفسها في المجتمع الإنساني من جديد.

ومهما يكن من أمر، فقد وجد المعنيّون بشأن الحوزة العلميّة أنّ النجف تعاني بعض النقص والضعف، مهما أُوتيت من إمكانيّات ثقافيّة وتوجيهيّة واسعة في مناهجها الدراسيّة، ومن ثمّ في نشاطها الفكري والدعائي، ولمسوا هذا الضعف في مختلف وجوه النشاط النجفي.

ولكي تقوم النجف بأداء رسالتها الإسلاميّة على أوسع نطاق خير قيام، وتحافظ على مركزيّتها التوجيهيّة في العالم الإسلامي يجب عليها أن تعالج هذا الضعف، مهما كان شكله. وأدرك جمعٌ من أعلام الفكر في النجف ضرورة العمل لتلافي الضعف والنقص في مناهج الدراسة والدعوة في النجف، وتوجيه هذه الدعوة وتطوير الدراسة فيها بالشكل الذي يناسب مكانة النجف الدينيّة وتتطلّبه الأوضاع الفكريّة والدعوتيّة في العالم.

ولم يكن أمر الإصلاح يسيراً بالشكل الذي يبدو للقارئ أوّل الأمر فقد كانت المحافظة والحيطة تطبع أعمال القائمين

بشؤون التوجيه والفكر بطابعها الخاص. وكان الرأي العام يراقب سير الأعمال والحركات في النجف، ممّا جعل القيام بأيّ نشاط إصلاحيّ على جانب كبير من الخطورة.

وهذا التفكير كان في وقته، يشلّ كثيراً من الحركات والاتّجاهات الإصلاحيّة، يقول المترجَم له الشيخ محمّد رضا المظفّر في بعض ما عثرنا عليه من مذكّراته المخطوطة:

«هذا هو التفكير الذي يبدو ظاهراً على بعض رجالنا الذين كانوا يحلمون بإصلاح نواقص الدراسة العلميّة في معاهد النجف الأشرف، فإنّ هذه النواقص كفقدان نظم التربية والتدريس في الامتحانات والمواد العلميّة والأوقات والشهادات كانت تهدِّد المفكِّرين منّا بشلّ الحركة العلميّة في مستقبل الجامعة القريب أو البعيد، يوم إن اصطدمت سفينة هذه ا لجامعة القديمة بتيّار هذا العصر الجديد فهزّتها في بحر متلاطم بالميول. ولكن الوقت الذي كانوا يفكّرون في هذا كان يعوقهم عن التقدّم في العمل ذلك التفكير المؤلم».

ظهرت هذه الفترة فكرة الإصلاح، وقامت محاولات إصلاحيّة بين حين وحين وتألّفت لذلك في النجف الأشرف لجان ومجالس وجمعيّات تهتمّ بهذا الشأن من شؤون الحياة النجفيّة. وقد واكب الشيخ المظفّر هذه الحركات منذ ظهورها واشترك في كثير منها ووعى ضرورتها منذ بدء ظهورها.

فاسمع إليه عندما يؤرّخ سير الإصلاح في النجف منذ نشوئه:

«لقد سايرت بنفسي فكرة الإصلاح حتّى هذه الساعة ـ ويقصد بذلك عام 1358هـ وهو عام تدوين هذه المذكّرات - وسأعطيكها وليدة، نشأت في أحضان الاجتماعات الصامتة ومرّت عليه أدوار وتجارب غذّتها حتّى اشتدّ ساعدها ونَمَت نموّاً يناسبها، شأن الكائنات الحيّة، ولعلّها الآن في دور الشباب اليافع المتحفّز يحتاج إلى غذاء كثير من الجهود الجبّارة والتضحية النادرة حتّى يكمل رجلاً سويّاً.

تألّفت ابتداءً من 1343 هجريّة أي قبل 15 عاماً ـ ويقصد عن تاريخ تدوين مذكّراته هذه ـ عدّة جماعات أشبه بجمعيّات سريّة أو مجالس تمهيديّة للتفكير في طريق الإصلاح واكتساب الشعور العام، وأتذكّر جيّداً أنّي اشتركت في إحداها وكنت كاتبها وأعضاؤها كلّهم الشباب الديني ذلك اليوم، وجماعا أُخرى هناك منها التي اتّصلنا بها وهم أكبر منّا طبقة، اشترك أكثرهم بعد ذلك في «منتدى النشر» ومحورها الثلاثة المعروفون بالصفوة أو أضلاع المثلّث المتساوي الأضلاع: «الشيخ محمّد جواد الحجامي والشيخ محمّد حسين المظفّر والسيّد علي بحر العلوم».

ولا أزال أحتفظ بمحاضر جلسات جماعتي الأُولى تلك وبمذكّراتي الخاصّة عنها وعن غيرها، وهي على بساطتها تمثّل لي مقدار التكتّم والخوف الذي كان يساورنا وكان عملنا وتفكيرنا مقتصراً على تفقّد المفكّرين من أصحابنا الذين يحسّون بالداء مثلنا، وبالرغم من مواصلة الجلسات والتفكير

طيلة عام واحد لم نستطع أن نخرج صوتنا من غرفتنا إلّا بعض الشيء، ولم نستطع أن نضمّ إلينا أكثر من عشرة أعضاء من فرق الزمن بين أكثرهم في بلاد نائية وقريبة ولا يزالون على قيد الحياة في النجف وخارجه يقرؤون كلامي هذا إذا اتّفق لهم (ولابدّ). وما أدري هل يسمحون لي أن أذكر أسماءهم، ولكن صديقي العلّامة الشيخ عبد اللّه السبيتي أعتقد أنّه لا يبخل عليَّ بالتصريح باسمه الآخر! من هو؟ (فليسمح لي أن أذكر اسمه) الأخ بالروح العلّامة الشيخ محمّد كاظم آل الشيخ راضي، وعندما يقرأ اسمه الصريح هل يرتاح له، سأعرف ذلك عندما أعلم أنّه قرأه.

وفي عام 1349 هـ عندما هاجمت النجف كتب عدائيّة حسست الشعور العام اتّخذه جماعة منّا (وأكثرهم من هاتين الجماعتين السابقتين وأعضاء في المنتدى أيضاً الآن) وسيلة للنهضة بتأسيس جمعيّة للنشر والتأليف، وكان ينوي بعض القائمين بالحركة الذين اتّصلت بهم استغلال هذه الجمعيّة إذا تمّت لإصلاح الدراسة الدينيّة.

ولا أنسى ما قام به الأخ العلّامة الشيخ علي ثامر (مدرّس علوم البلاغة في المنتدى الآن)[1] من الجهود المشكورة في سبيل المشروع، فقد كان هو من أوّل المفكّرين فيه ومتتبّعي هذه الحركة، وفي داره عقدت الاجتماعات

---

(1) يقصد من الآن تاريخ كتابة المذكّرات.

التمهيديّة ثمّ في دار العلّامة السيّد سعيد الحكيم، وقد تمكّن القائمون بالنهضة أن يشركوا معهم أشهر رجالات النجف وعلمائها والمفكّرين حتّى انتخبوا هيئة عاملة تتألّف من سبعة أشخاص وهيئة عليا من ثلاثة مجتهدين وباقتراح هذه الهيئة العليا نهض العلّامة الأكبر المرحوم الشيخ محمّد جواد البلاغي لتأليف تفسير مختصر للقرآن العظيم ليكون باكورة الأعمال أسماه (آلاء الرحمن) وعاجلته المنيّة قبل إكماله وخرج منه جزءان وطُبِعا، فكان هذا كلّ نتيجة هذه الحركة.

وجاء الدور الثالث من قبل ست سنوات ـ أي من حين تدوين المذكّرات ـ وهو أبعدها مدىً وأعظمها أثراً وذلك حركة «الكليّة» كما يسمّونها، لأنّها هزّت النوادي النجفيّة هزّة عنيفة اشترك فيها الكبير والصغير والعالم والجاهل، وقد بلغ الموقّعون على ورقة شروط العمل المئتين هم رجال العلم بالنجف وأهل الكلمة فيه. ولكن يظهر أنّ هذه الكثرة في ابتداء العمل وقبل انتظامه ممّا ساعد على توقّف الحركة فلم تصمد أمام العاصفة الهوجاء. وقد أعطتنا التجارب أنّ الأعمال الكبيرة يجب لأجل نجاحها أن تقوم بها جماعة محدودة تدير دفّة العمل بتعاضد وتكاتف وتضحية على عكس ما هو مشهور، لأنّ الشعور بالمسؤوليّة يقوى في الفرد إذا قلّت الجماعة، وهكذا كلّما كثرت الجماعة ضعف الشعور بالمسؤوليّة. وهذه نظريّة اجتماعيّة نستطيع أن نلخّصها بقولنا: «إنّ عدد الجماعة يتناسب تناسباً عكسيّاً مع الشعور بالمسؤوليّة في الفرد».

وأعتقد أنّ من أسباب فشل هذه الحركة أيضاً أنّ الدعوة كانت لعمل كبير جدّاً ليس من السهل تحقيقه مرّة واحدة مهما كان القائمون به والتدرّج سُنّة اللّه في خلقه ولن تجد لسنّة اللّه تبديلا.

فمن الضروري لمثل هذا العمل أن يبدأ صغيراً، وينمو بمرور الزمن إذا تعوهد من رجال مخلصين بالسعي والجهاد المتواصل ـ ولو تحقّقت يومئذ هذه الفكرة لتغيّر مجرى تاريخ النجف إلى غير ما نشاهد اليوم ولكانت علالي العلم سامقة دونها ناطحات السحاب» إلى آخر ما ذكره في مذكّراته الطريفة المهمّة التي لو قدّر لها أن تُنشَر لأفادت المكتبة الإسلاميّة ولأفاد منها الباحثون الشيء الكثير.

دور الشيخ المظفّر في تطوير مناهج الدراسة والدعوة

رأينا فيما تقدّم من الحديث أنّ الشيخ المظفّر كان يحتلّ القمّة من النشاط الإصلاحي في النجف الأشرف، وساهم في جميع الحركات الإصلاحيّة التي أدركها، وكان فيها العضو البارز الذي يشار إليه بالبنان.

إلّا أنّ الفكرة الإصلاحيّة على قوّتها وإيمان أصحابها بضرورة تحقيقها في الحوزة العلميّة، كان يفقدها الوضوح والتفكير المنهجي في العلاج.

وقد قدّر للشيخ فيما قدّر له، بفضل تجاربه الطويلة، أن

تتبلور لديه فكرة الإصلاح وتنظيم الدراسة والدعوة أكثر ممّا تقدّم، وأُتيح له بفضل ما أُوتي من نبوغ وحكمة في معالجة هذه القضايا أن يكشف عن الجذور الأُولى للمشكلة، ويدعو اخوانه وأبناءه بإخلاص إلى معالجة المشكلة من هذه الجذور، والمشكلة فيما كان يبدو للشيخ تواجهنا في جهتين:

في مجال الدراسة، وفي مجال الدعوة:

ففي مجال الدراسة لاحظ أنّ التدريس في مدرسة النجف الأشرف ينتظم في مرحلتين:

1 ـ مرحلة المقدّمات والسطوح.

2 ـ مرحلة البحث الخارجي.

وتعتبر مرحلة السطوح دوراً إعدادياً، بينما تعتبر مرحلة الخارج دوراً للتخصّص في الاجتهاد.

وطبيعة هذه المرحلة تأبى أي تعديل في شكلها ومحتواها ولا يمكن إخضاع هذه المرحلة من الدراسة لأيّ تنظيم منهجي خاص. ولا تتبع الدراسة في هذه المرحلة تنظيماً خاصّاً ولا تكاد تشبه الدراسة بالمعنى المنهجي الذي نفهمه من الدراسة.

ففي هذه الدراسة تقع مهمّة الإعداد كلّه أو جزء كبير منه على الطالب نفسه. ويقوم الطالب في هذا الدور قبل حضور المحاضرة بإعداد مادّة البحث وصوغ هذه المادّة بالشكل الذي

يتطلّبه البحث العلمي ومراجعة الكلمات والأقوال في ذلك، وما يصلح وجهاً لمناقشة ذلك كلّه، ويحضر البحث بعد ذلك ليصغي إلى توجيه الُاستاذ في صياغة البحث والمناقشة فيناقش الُاستاذ فيما يبدو له من رأي! وبعد نقاش يجري بين الُاستاذ والطالب يقتنع الطالب برأي الُاستاذ أو ينزل الُاستاذ عند رأي الطالب ويصحّح الطالب في ضوء هذا التوجيه والإشراف ما كان يبدو على تفكيره من وجوه الضعف أو النقص.

وطبيعة هذا البحث لا تتحمّل أي تحديد وتنظيم، خارج الحدود التي رسمناها له، ولا يمكن حصر النقاش أو تحديد البحث بحدٍّ خاصّ، كما لا يمكن أن يكون الامتحان داعياً إلى البحث والدرس في هذا الدور.

فإنّ الامتحان يبعث عادةً على تحضير المادّة التي يتلقّاها الطالب في المدرسة. وطبيعة الدراسة الخارجيّة تتطلّب التمحيص والبحث أكثر ممّا تتطلّب التحضير والإعداد، ولا يمكن أن يبعث إليه غير الرغبة إلى البحث.

وقد أدرك الشيخ المظفّر لهذا وأمثاله أنّه لا يمكن إجراء أي تعديل في هذا الدور من الدراسة والدور الأوّل وحده الذي يعاني شيئاً من النقص ويحتاج إلى شيء من التوجيه والتنظيم.

ولاحظ أنّ أسباب ذلك يرجع إلى نقص في المادّة وضعف في الأسلوب.

أمّا من حيث المادّة فإنّ المادّة التي يتلقّاها الطالب

النجفي في هذا الدور من الدراسة ما تزال في كثير من الأحوال تقتصر على دراسة النحو والصرف والبلاغة والمنطق والتفسير والفقه والأُصول، مع توسّع في المادّتين الأخيرتين.

وهذه المواد على ما لها من الأهمّية في تكوين ذهنيّة الطالب لا تنهض وحدها بواجبات الطالب الرساليّة من توجيه ودعوة وتبشير وتثقيف. ولا يستطيع الطالب أن يقتصر على هذه المادّة التي يتلقّاها في هذا الدور لو أراد القيام بدوره من التوجيه والدعوة على أوسع نطاق.

ولا يستغني أن يتعرّف على مناهج الفكر الحديث وبعض الدراسات البشريّة وحقول من المعرفة التجريبيّة، كما لا يستغني من أن يملك الأداة البيانيّة الكافية من كتابة وخطابة للقيام بواجبه الرسالي في حقول الدعوة والتوجيه، ولو أراد الطالب النجفي أن يوفي هذه الحقوق الجديدة من الفكر حقّها من الدراسة والمعرفة فلا يتاح له بعد ذلك أن يتوسّع هذا التوسّع الهائل في دراسة النحو أو الصرف أو البلاغة، وما يحمل في طيّاتها من أبحاث طويلة هي إلى الترف الفكري أقرب منها إلى أيّ شيء آخر.

ومن حيث الأسلوب لاحظَ الشيخ المظفّر أنّ الكتب الدراسيّة التي يتعاطاها الطالب النجفي في هذا الدور لا يزال يطغي عليها طابع الغموض والتعقيد، ممّا يحوج الطالب إلى أن يصرف جهداً كثيراً في فهم العبارة وما يظهر عليها من

غموض وتعقيد. ذلك بالإضافة إلى سوء التنظيم في تنسيق الأبحاث.

وإذا قدّر للطالب أن يصرف هذا الجهد الذي يبذله في تلقّي المادّة نفسها في شؤون أُخرى من الفكر، ممّا يهمّ الطالب في أداء مهمّته الرساليّة لوفّر على نفسه كثيراً من الجهد وفتح على نفسه أبواباً جديدة من الفكر.

ولاحظَ أنّ الدراسة الفرديّة أو دراسة الحلقات المعروفة في النجف تدفع الطالب إلى الشعور بالمسؤوليّة إزاء نفسه وتبعثه إلى البحث والتحضير أكثر ممّا تبعثه إلى ذلك الدراسة المنظّمة التي تعتمد على الامتحان وعلى مسؤوليّة المدرسة، دون مسؤوليّة الطالب نفسه، إلّا أنّ هذا النظام لا يخلو كذلك من بعض النقص، فقد يقضي ا لطالب وقتاً طويلاً في العثور على الأُستاذ الخاص، وقد لا تتوفّر في الطالب الدواعي النفسيّة التي تبعثه على العمل الفردي ولا يشعر بالمسؤوليّة التي يشعر بها الآخرون.

ذلك فيما يخصّ تنظيم الدراسة.

أمّا ما يخصّ الدعوة والتوجيه:

فقد وجد الشيخ المظفّر أنّ أداة الدعوة المفضّلة هي الخطابة والكتابة، والدعوة الإسلاميّة تعاني ضعفاً في هذين الجانبين.

أمّا فيما يخصّ الخطابة فقد كان رحمه اللّه يلاحظ أنّ أسلوب الخطابة في النجف بوضعها الحاضر لا يفي برسالة النجف بالشكل الذي يليق بمركزها الديني، ولا يتمّ للخطيب أن يقوم بواجبه الإسلامي على نطاق واسع، ما لم يطّلع على آفاق الفكر الحديث وشؤون المعرفة التجريبيّة، بالإضافة إلى الإحاطة الكاملة بشؤون الفكر الإسلامي من فقه وتفسير وحديث وتاريخ وما إلى ذلك.

وفيما يخصّ الكتابة الإسلاميّة كان يلاحظ أنّ مدرسة النجف ما تزال تعاني ضعفاً وتأخّراً في هذا الجانب من رسالتها.

ومكانة النجف الدينيّة تتطلّب منها أن تساهم في نشر الفكر الإسلامي على نطاق أوسع من الشكل الحاضر، وأن تنطلق الدعوة الإسلاميّة منها عن طريق الكتابة والتأليف والصحافة والنشر على أوسع مجال، وأن يشمل هذا التيّار الفكري، الذي ينطلق عنها والذي يحمل معه الإيمان والإصلاح في وضوح وجلاء، أقطار العالم وأينما يحلّ إنسان على ظهر هذا الكوكب. في الوقت الذي كان يلاحظ فيه أنّ مدرسة النجف لا تعوزها في كثير من الأحيان مادّة الكتابة والبحث.

ومرجع هذا الضعف، كما كان يبدو له رحمه اللّه إلى عدم تمكّن الكاتب النجفي من التعبير، وفقدان الصياغة الأدبيّة في الكتابات النجفيّة... في ذلك الوقت.

ومن جهة ثانية كان يلاحظ أنّ طابع الفرديّة هو الذي يغلب على الكتابة النجفيّة، والأبحاث التي يعرضها الكاتب النجفي هي أقرب إلى الجهد الفردي منه إلى الجهد الجماعي، فلا تبحث الشؤون الفكريّة فيما عدا الفقه والأُصول والتفسير بصورة عامّة، ولا توجد لجان خاصّة لتحقيق هذه الأبحاث وتنقيحها ومراجعتها قبل عرضها على المطبعة.

ومن جهة ثالثة لم تتوفّر في النجف في ذلك العهد مطابع مجهّزة ولا دور جاهزة للنشر تليق بالمادّة العلميّة الخصبة التي تعرضها النجف على المطبعة.

يقول الشيخ رحمه اللّه في بعض حديثه: و(النجف) بلاد علميّة من قديم القرون، وعاصمة للمرجعيّة في التقليد، والجامعة الأُولى لدراسة العلوم الدينيّة والعربيّة، ولها سوق رائجة في الأدب العالمي، وفيها في كلّ عصر مؤلّفون وأُدباء، ولها في كلّ فنّ كتب وآثار، فهي من هذه النواحي غنيّة لا يضارعها بلد إسلامي آخر، ولا سيّما قبل عصر النهضة الحديثة.

إلّا أنّ الذي ينقصها ـ ويجب الاعتراف به ـ تنظيم نشر ما تضمّ كنوزها من مؤلّفات قديمة وحديثة، وتوجيه التأليف على النحو المرغوب فيه في هذا العهد، وتشجيع المؤلّفين والناشرين في عصر راجت فيه الطباعة واتّسقت حركات الثقافة واتّسعت دور النشر، وحرمت منه بلادنا المقدّسة. فهي على ما

فيها من مادّة غزيرة منكمشة على نفسها لا تظهر آثارها كما يجب أن تظهر. وما يتّفق أن ينشر في منتجاتها وإن كان ليس بالقليل في حدّ نفسه لا يبلغ الواحد من المئة إذا أردنا المبالغة، على أنّه قد لا ينشر المنتخب والمختار من تلك المؤلّفات، لأنّ ما يطبع على الأكثر إنّما هو نتيجة جهود فرديّة يقوم بها أشخاص المؤلّفين أو من يَمُتّ إليهم بصِلَة.

وهذا ما أوجب الظّن عند البعض بأنّ ما يقال عن العلم والأدب والتأليف في النجف الأشرف إنّما هو من نوع الدعاية الفارغة، وقد يكون هذا معذوراً في ظنّه، لأنّ طفرة العالم العربي فضلاً عن غيره في هذه الناحية، فناحية النشر والتأليف لم تدع المجال للعذر في تأخّر النجف عن ذلك، والمنتظر منها أن تصدر على الأقلّ كلّ يوم مؤلَّفاً طريفاً حسب ما يتناسب مع سمعتها. ولكن هذا الظّن فيه من الحيف العظيم الذي لا يعرفه حقّاً إلّا نفس أهل العلم بالنجف أو من يتّصل بهم اتّصالاً ثقافيّاً.

وينسب الدكتور مهدي البصير في كتابه الحديث (نهضة العراق الأدبيّة) طمس تلكم الآثار إلى قلّة ذات يد المؤلّفين والأُدباء فتقعد بهم عن إذاعتها، وقد يكون هذا صحيحاً إلى حَدٍّ ما، ولكن له سببٌ آخر هو ـ فيما أرى ـ سبب الأسباب، وهو عدم وجود مؤسّسة كبيرة تفي بذلك، وبالأصحّ هو عدم وجود شعور عام عندنا يقذف بالرِّجال إلى العمل المُجدي في هذا السبيل وبتأسيس مشروع يليق بمكانة النجف العلميّة

والأدبيّة، وقد كانت النجف تعتمد في نشر كثير من المؤلّفات على مطابع إيران وتبرّع المحسنين، ثمّ لمّا تأسّست المطبعة التجاريّة فيها، ثمّ كثرت المطابع من هذا النوع، لم تكن وافية بالغرض ولا محقّقة للواجب لأمور يطول شرحها، على أنّ هذه المطابع على كثرتها اليوم تدأب وتعجّ بالعمل ولا نراها بالغة شيئاً ممّا يصبى إليه.

وكذلك أُتيح للشيخ المظفّر أن يدرس الحالة في النجف بموضوعيّة وشمول، ولكنّه كان يعلم في نفس الوقت أنّ عرض المشكلة لا يؤدّي إلى شيء ما لم تتضافر الجهود مخلصة وصادقة لتلاقي النقص.

وكان يعلم أنّ الأساليب السلبيّة لا تنفع لمواجهة الحالة والهدم لا يفيد، ولا ينهض بشيء، ما لم يكن هناك بناء وراء ذلك.

فقد اعتاد الناس أن يصغوا إلى هذا النقد اللّاذع الذي لا يبقي على شيء ولا يَذَر، واعتاد الناقدون أن يتناولوا شؤون الحياة بالنقد الساخر، الذي لا يعرف الرّفق.

وما أيسر النقد لو لم يستدع العمل، وما أسهل الهدم، لو لم يتطلّب البناء. كان الشيخ يدرك ذلك كلّه ويدرك أنّ الإصلاح لا يتمّ بالوسائل السلبيّة، ولابدّ من البناء والعمل المثمر الهادف. وكانت وجهات النظر متباعدة في ذلك الوقت.

فكان منهم المحافظ، الذي يخشى أن يمسّ الوضع

الراهن بشيء، وكان منهم الخارج على الوضع المتمرّد عليه، الذي اعتزل الوضع فانقلب في نفسه هذا الشعور إلى شعور بالعداء.

ولا يتاح لأحد أن يعمل قبل أن يجمع بين هذه الوجهات المتباعدة من الرأي.

ثمّ إنّ العمل الثوري الذي يصدر عن العاطفة لا ينفع في مثل هذه الموارد، بل يؤدّي إلى نتيجة معاكسة تماماً، فإنّ الحركات الثوريّة تؤدّي في مثل هذه الأوضاع إلى إبعاد القائمين بالعمل عن الوسط الاجتماعي وعزلهم عن النشاط الإصلاحي.

ولا يكاد ينفع العمل الإصلاحي في مثل هذه الظروف، ما لم يكن مقروناً إلى دراسة الوضع دراسة موضوعيّة شاملة وإلى الرؤية والتدرّج في العلاج.

وقد أدرك الشيخ كلّ ذلك وفكّر في ذلك كلّه طويلاً، وشمّر عن ساعد الجِدّ ليخوض ميدان العمل، وهو يدري أنّ هناك عقبات صعاباً تعرقل سيره في هذا الطريق. وأوّل ما بدا له إيجاد جماعة واعية من اخوانه فضلاء الحوزة، تفهم ملابسات الحياة النجفيّة، وتعي واقع الرسالة الفكريّة الضخمة التي تحملها النجف.

وفي رابع شوّال عام 1353هـ المصادف 10 / 1 / 1955م قدّم ثلّة من الشباب الروحانيّين (فيهم الشيخ) بياناً إلى

وزارة الداخليّة يطلبون فيه تأسيس جمعيّة دينيّة بالنجف الأشرف باسم منتدى النشر مصحوباً بالنظام الأسالي، وبعد اللّتيا والّتي أجازت الوزارة فتح المنتدى[1].

وأعقبها بمحاولة لتنظيم الدراسة، وتبسيط الكتب الدراسيّة، وتوسيع المناهج الدراسيّة، ووجد أنّ الدراسة المنهجيّة هي الخطوة الأُولى في هذا الطريق، ومهما كانت ضرورة الدراسة الفرديّة، ومهما قيل في جدواها فلابدّ أن ينضمّ إلى هذا اللّون من الدراسة لونٌ آخر من الدراسة يعتمد على نظام خاص، وبهذا الشكل حاول أن يحقّق جزءاً من الإصلاح.

وكان يتوخّى من وراء ذلك تبسيط الكتب الدراسيّة وتنظيم الدراسة وتوسيع المناهج الدراسيّة بصورة منهجيّة، خاضعة لنظام خاصّ تعدّ الطالب لدخول الدراسات الخارجيّة والتخصّص في الاجتهاد، أو التفرّغ للخطابة والكتابة الإسلاميّتين أو ما يتّصل بذلك ممّا يرتبط برسالة النجف الأشرف. فوضع في سنة 1355 هـ (الخطّة لتأسيس مدرسة عالية للعلوم الدينيّة أو كليّة للاجتهاد بفتح الصف الأوّل الذي كان يدرّس فيه أربعة علوم: الفقه الاستدلالي والتفسير وعلم الأُصول والفلسفة، على شكل محاضرات توضع بلغة سهلة واضحة، فتبرّع بتدريس الأوّل والثاني الشيخ عبد الحسين

(1) نظام منتدى النشر، آب / 1370 هـ.

الحلّي، وتبرّع بتدريس الثالث والرابع الشيخ عبد الحسين الرشتي، وكان تبرّع هذين العَلَمين بالتدريس دراسة منظّمة من أهمّ الأحداث في تاريخ النجف الأشرف، ويعدّ تضحية نادرة منهما تُذكَر مدى الدهر بالتقدير والإعجاب بروحهما الإصلاحيّة، ولم تأت العطلة الصيفيّة إلّا وتعطّل هذا الصف ليعود بعدها، ولكنّه أبى ولا يدري غير بعض أعضاء مجلس الإدارة، أكانَ إباؤه عن دلال أم مَلال أم عن شيء آخر غير منتظر حتّى من مثل هذين العلَمين نفسهما. قاتل اللّه الشجاعة الأدبيّة كيف تعزّ في أشدّ ظروف الحاجة إليها)[1].

(وفي سنة 1357 هـ بعد فتور وفترة مقدارها قرابة السنة تأسّس صف لدراسة العلوم العربيّة والمنطق والفقه والأدب العربي وبعض الفروع الاُخرى، واستمرّ إلى آخر السنة، وكان نجاحه ممّا شجّع فتح ثلاث صفوف (في سنة 57 ـ 1358هـ) دراسيّة واعتبر الطلّاب المتخرّجون من الصف السابق طلّاباً للصف الثالث، وقد نجح هذا المشروع في تلك السنة نجاحاً باهراً وبلغ طلّابه 150 طالباً واعترفت بها وزارة المعارف[2].

وتمّ له في سنة 1364 هـ بقوّة الاستمرار أن يفتح أربعة صفوف باعتبارها قسماً متوسّطاً للعلوم الدينيّة مع صف تحضيري قبلها وثلاثة صفوف أُخرى عالية اعتبرت كلّية للفقه،

---

(1) المظفّر، الشيخ محمّد رضا، منتدى النشر أعماله وآماله، ص8 ـ 9.

(2) نظام منتدى النشر، 1370هـ، ح ط بتصرّف.

وقد نجح في خلال هذه المدّة جماعة لا يستهان بها من الطلّاب الأذكياء الذين أصبح قسم منهم مفخرة من مفاخر الجيل، في ثقافتهم وأقلامهم وأخلاقهم الإسلاميّة، وجملة منهم لا يزالون يؤدّون واجبهم المقدّس في تربية الناشئة الدينيّة[1].

وفي سنة 1376 هـ بعد محاولات عديدة وتجارب طويلة أسّس الشيخ المظفّر كليّة الفقه في النجف الأشرف، واعترفت بها وزارة المعارف العراقيّة سنة 1377هـ واعتبرت شهادتها عالية يطبّق على حاملها ما تنصّ عليه القوانين والأنظمة فيما يتعلّق بخرّيجي المعاهد العالية.

والعلوم التي تدرّس فيها هي الفقه الإمامي، والفقه المقارن، وأُصول الفقه، والتفسير وأُصوله، والحديث وأُصوله (الدراية) والتربية، وعلم النفس، والأدب وتأريخه، وعلم الاجتماع، والتاريخ الإسلامي، والفلسفة الإسلاميّة، والفلسفة الحديثة، والمنطق، والتاريخ الحديث، وأُصول التدريس، والنحو، والصرف، وإحدى اللّغات الأجنبيّة.

وقد بذل فقيدنا الشيخ حياته في سبيل تنمية هذه المؤسّسة بإخلاص وإيمان يعزّ مثله في نفوس المجاهدين، فكان يقوم بتدريس الفلسفة الإسلاميّة، وإدارة الصفوف عند غياب بعض

(1) نظام منتدى النشر، ر ط.

المدرّسين، في سائر العلوم. وكان في الوقت نفسه يعدّ مجلّدات كتابه القيّم (أُصول الفقه) للتدريس في (كلّية الفقه)، وفي حوزة النجف الأشرف باعتباره الحلقة المفقودة بين كتاب معالم الأُصول وكفاية الأُصول، ويباشر مهامّ الإدارة والعمادة والتأليف وحتّى تدوين السجلّات في بعض الأحيان.

وكم رأيت الشيخ، وهو يقوم بتدوين بعض سجلّات الطلبة، أو مراجعتها، أو طباعة بعض الرسائل بالآلة الطابعة.

وكذلك قامت المؤسّسة على عاتق الشيخ الفقيد، وأودعها حياته، وشيّدها بدقّات قلبه، وبذل في سبيلها جميع إمكانيّاته.

وحاول في الوقت نفسه أن يقوم بتبسيط الكتب الدراسيّة وإزالة التعقيد والغموض عنها، لييسّر للطالب المادّة الدراسيّة في الدرس من غير جهد ومشقّة، وليوفّر على الطالب كثيراً من الجهود التي يبذلها في هذا السبيل، ليصرفها في مجالات الفكر الرحبة.

وحرّر لذلك كتابيه (المنطق) و(أُصول الفقه) فحرّر بهما هذين العلمين من غموض وتعقيد الكتب القديمة.

ومن إنصاف الحقّ أن يُقال أيضاً إنّ هذين الكتابين يعتبران فتحاً كبيراً في هذا الباب، ولا يجد الباحث عُسراً كثيراً ليلتمس الجهد الكبير الذي بذله الشيخ الفقيد لتبسيط المنطق والأُصول في هذين الكتابين مع صعوبة المادّة في ذاتها.

ولا يقتصر الجهد التجديدي الذي بذله الشيخ المظفّر في هذين الكتابين على تبسيط العرض، ففي هذين الكتابين وجوهٌ أُخرى من التجديد والتطوير لا توجد في الكتب الُاخرى.

وقد حاول المؤلِّف أن يجاري في هذين الكتابين أحدث المناهج التأليفيّة في كتب الدراسة الجامعيّة من العرض والتبسيط والتمثيل والتمرين والتنسيق والتعليق.

وحبّذا لو قام أعلام الفكر من أمثال الفقيد بالإشراف على تأليف الكتب الدراسيّة من جديد، وفق المناهج الحديثة.

وأذكر أنّني كنتُ أكتب بحثاً عن مشكلة الكتب الدراسيّة في النجف قبل سبع سنوات، لتنشره مجلّة النجف في وقته، تناولت فيه كتاب (المنطق) ببعض النقد، وألقيت هذا البحث قبل أن يُنشَر على صفحات مجلّة (النجف) بقاعة المحاضرات العامّة في منتدى النشر، وكان الشيخ المظفّر حاضراً في القاعة، فلم أجد عنده ما يدلّ على الاستياء. وحدّثني فيما بعد بأنّ مثل هذه النقود لا تنهض بشيء، فيما يبدو له، ولا يفيد النقد ما لم يقترن بالعمل المثمر البنّاء، وأكّد لي أنّه لم يؤِّلف (المنطق) و(الُاصول) إلّا لهذا الغرض.

وبحوثه في الفلسفة الإسلاميّة لا تقلّ أهميّةً عن كتابيه (المنطق والأُصول) لولا أنّها لم يقدّر لها أن تطبع.

ذلك كلّه فيما يخصّ الدراسة.

أمّا فيما يخصّ الدعوة والتوجيه الديني ففي مجال الخطابة كان الشيخ الفقيد يؤمن بأنّ الخطابة الحسينيّة تعتبر من أهمّ الوسائل الدعائيّة، ولا تكاد تفي الخطابة الحسينيّة بوضعها الحاضر بمهامّها الرساليّة[1]. ولابدّ من العمل لإنقاذ الخطابة الدينيّة من وضعها الحاضر وتربية نشء من الخطباء يملكون الكفاءات التي تؤهّلهم للخطابة الإسلاميّة، وتدريس العلوم التي يلزم الخطيب الإلمام بها، والتي تتّصل برسالته الإسلاميّة بوجه من الوجوه.

وكان فتحُ معهد بهذا المستوى من أكبر آمال الشيخ الفقيد، ففي التقرير السنوي الذي رفعه إلى الهيئة العامّة سنة 1363هـ تصريح بهذه الفكرة، فقد جاء فيه: (كليّة الوعظ والإرشاد، تحول المتخرّج أن يعظ باسم الدِّين وأن يكون ذاكراً للحسين (عليه السلام) والمنوي السعي في فتحها في فرصة قريبة إذا سهّل اللّه تعالى)[2].

وتألّفت هذه اللّجنة عام 1363 هـ برئاسة خطيب العراق الشهير فضيلة الشيخ محمّد علي قسّام وذلك على أثر التحسّس العام الذي ظهر في جميع الأوساط المثقّفة في العراق بضرورة تهذيب ناشئة خطباء المنبر الحسيني وتثقيفهم ثقافة عالية تليق برسالة الإمام الحسين الشهيد (عليه السلام)، وقد باشرت هذه

(1) لاحظ كتاب: من حديث الدعوة والدّعاة لكاتب هذه السطور.

(2) المظفّر، منتدى النشر أعماله وآماله، مصدر سابق، ص22.

اللّجنة أعمالها وشَرَعت بالفعل ـ قبل أن يتمّ منهاج المدرسة وفتحها رسميّاً ـ في فتح صف بمثابة تجربة لعملها لدراسة الفقه والعلوم العربيّة وأُصول الدِّين وأُصول الحديث «علم الدراية»، غير أنّه لم يمض على فتح هذا الصف التجريبي قرابة شهر واحد إلّا وثارت ـ على غير انتظار ـ زوبعة عنيفة على هذه اللّجنة، بحجّة أنّها تسعى لتحديد نوع خطابة المنبر الحسيني وتحديد أشخاص الخطباء، وبحجّة أنّها تريد أن تقلّص من ذكر الحسين (عليه السلام) وبغير ذلك من التُّهم الباطلة التي كانت تكال على هذه اللّجنة، في حين أنّ أعضاءها كلّهم من مشاهير الخطباء وأتقيائهم الذين يحرصون كلّ الحرص على خدمة الحسين (عليه السلام) ومنبره، وما كان تأليفهم اللّجنة إلّا بدافع الإخلاص للدعوة الحسينيّة، لغرض تثقيف ناشئة الخطباء، وقد تكهرب جوّ النجف بهذه التّهم ضدّ اللّجنة ممّا اضطرّ معه أصحاب اللّجنة إلى أن يسرعوا في إلغائها تفادياً من وقوع ما لا تُحمَد عقباه. وكانت هذه الحركة الثائرة في وضع لم يدع للّجنة المهلة لكشف نواياها ومبادئها، وبعد إلغائها في فترة وجيزة استطاع رجال المؤسّسة وجماعة من علماء البلد وزعمائها أن ينوّروا الرأي العام بالدوافع الحقيقيّة لتلك الحملة وأن يفهموا الفوائد العظيمة التي كانت تجنى من تأليف مثل هذه اللّجنة. وما يجب أن يذكر للتاريخ أنّ الذين تأثّروا لهذه الحركة وقابلوا الجمعيّة كان أكثرهم مندفعين بدافع من سلامة النيّة ووفرة الإيمان الصحيح لذلك كانوا أسرع استجابة من

غيرهم إلى قبول ما أدلى به موضحو الفكرة من العلماء والزعماء)[1].

وقد امتُحِن الشيخ المظفّر في هذه المرّة امتحاناً عسيراً، وكاد أن يقضي ذلك كلّه على حياة المؤسّسة التي غذّاها الشيخ بروحه وفكره بإخلاص، وقد أدّى فعلاً إلى استقالة الشيخ محمّد شريعة سكرتير المؤسّسة وخسرت المؤسّسة هذا العضو العامل، الذي كان يعتبر محوراً للحركة، في كثير من وجوه نشاط المؤسّسة.

وكان الشيخ المظفّر يبدو في هذه الفتنة ثابت الجأش مطمئنّ النفس شديد الإيمان بالله تعالى، وقد اضطرّ أن يعتزل المجتمع أيّاماً معدودة ولكن ريثما يهدأ الجوّ مرّة أُخرى، وليرجع إلى المجتمع ثانيةً، بإيمان قويّ ونفس مطمئنّة، لا تعرف الملل، ولا تفهم الفشل.

وفي مجال الكتابة كان يحاول أن يجد من قاعة محاضرات المجمع العلمي وكلّية الفقه منطلقاً للكتابة الإسلاميّة، وكان يبعث روح الكتابة والتأليف في نفوس اخوانه وأبنائه ويدفعهم إلى ذلك دفعاً، ويؤلّف لذلك اللّجان ويعدّ له القاعات كما يعدّ له الوسائل الكافية للنشر.

---

(1) نظام منتدى النشر، 1370 هـ، ص4.

استمع إليه في بعض حديثه:

(لمّا توسّعت أعمال منتدى النشر بقي الغرض الأقصى وهو النشر والتأليف يشبه أن يكون مهملاً في سجل أعماله ولكن ليس معنى ذلك أنّه مهمل حقيقةً حتّى تأسّست له لجنة المجمع الديني منذ عامين تقريباً وهمّها الأوّل كان تهيئة أعضائها للتأليف وإلقاء المحاضرات النافعة ومبادلة الرأي فيما يجب العمل له في هذا السبيل فتوفّقت أن تجعل يوم الجمعة من كلّ اسبوع يوماً لاستماع محاضرات الأعضاء بصورة متوالية، ثمّ توسّعت حتّى كان اجتماع يوم الجمعة يشبه أن يكون يوماً عامّاً يشترك في الحضور فيه جماعة كبيرة غير أعضاء اللّجنة من أعضاء المنتدى وغيرهم، وزادت على ذلك بإقامة الحفلات والمحاضرات العامّة في شتّى المناسبات لفائدة العموم، وقد شهدت النجف الأشرف في اسبوع الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بمناسبة ذكرى وفاته مهرجاناً لمدّة اسبوع كامل منقطع النظير.

وقد فكّرت بالأخير أن تعدّ مشروعاً ابتدائيّاً كباكورة لأعمالها التي تنويها وهو إعداد سلسلة مؤلّفات صغيرة نافعة، فيها فائدة للخاصّة وتثقيف للعامّة)[1].

وقد قدّر لهذا المشروع فيما بعد أن ينشر سلسلة من

(1) مقدّمة كتاب مالك الأشتر، ص8 ـ 9.

الكتب الإسلاميّة والتوجيهيّة النافعة، منها كتاب الشيعة والإمامة للشيخ محمّد حسين المظفّر، والصادق والثقلان وتاريخ الشيعة له أيضاً. واسبوع الإمام وهو يحتوي على مجموعة من المحاضرات التي أُلقيت في الاسبوع الذي أقامته لجنة المجمع الثقافي بذكرى شهادة الإمام (عليه السلام) في شهر رمضان 1364 هـ، والسقيفة للفقيد المظفّر، والزهراء للسيّد محمّد جمال الهاشمي، ومالك الأشتر للسيّد محمّد تقي الحكيم.

وقدّر لهذه المؤسّسة، فيما قدّر لها برعاية من الشيخ الفقيد أن تصدر في هذه المدّة مجلّتين، تعتبران من خيرة المجلّات العراقيّة هما مجلّة البذرة ومجلّة النجف، وقد تعهّد طلّابه كلتا المجلّتين بالتحرير والإصدار، وهم يجدون في عطف الشيخ الفقيد وعنايته البالغة بهم وتوجيهاته الكريمة خير باعث على العمل.

وكان الشيخ المظفّر محور الحركة في مختلف وجوه النشاط، وباعثها في كثير من الأحيان، ولم يظهر على حديثه أو قلمه طيلة هذه المدّة ما يشعر بأنّه شيءٌ يُذكَر في هذه المؤسّسة إلّا عندما يأتي حساب المسؤوليّة فيظهر الشيخ على المسرح ليتحمّل هذه المسؤوليّة بنفس ثابتة وإيمان قويّ.

وما أكثر ما شوهد الشيخ يلقي دروساً على طلّابه الناشئين أو يُلقي عليهم نصائح وإرشادات أو يقوم بتوجيههم بنفسه في روحانيّة وبساطة.

ولم يعرف الشيخ الفقيد حيناً من الزمن معنى لكلمة (أنا) ولما يلابس هذه الكلمة من بغض وحبّ في غير ذات اللّه.

فقد كانت نفسه الكبيرة تضيق بما يسمّى (بالبغض) ولا تعرف معنى للخصومة والعداء، فاستمع إليه كيف يحدّد موقفه من خصومة أو بالأحرى من خصوم المؤسّسة: (.... وأنا أكثر اخواني عذراً لجماعة كبيرة ممّن وقف موقف المخاصم لمشروعنا ولا سيّما الذين نطمئنّ إلى حسن نواياهم ويطمئنّون إلى حسن نوايانا).

وقلّما نعهد أن تبلغ التضحية ونكران الذات فيمن رأينا من أصحاب الأفكار هذا الحَدّ.... في سبيل الفكرة التي يؤمن بها الإنسان.

وإنّ من أحبّ الأشياء أن يصغ القارئ إلى هذه الجملة الرقيقة التي تشف عن نفسيّة كاتبها الكبيرة (ونحن مستعدّون لتضحية جديدة بأنفسنا فنتنحّى عن العمل عندما نجد من يحبّون أن ينهضوا به دوننا خصوصاً إذا اعتقدوا أنّهم سيعطون المشروع صبغة عامّة بدخولهم وليثقوا أنّا عمّال للمشروع أينما كنّا ومهما كانت صبغتنا فيه، ولا نريد أن نبرهن بهذا القول على حسن نوايانا. إنّ هذا لا يهمّنا بقليل ولا كثير بعد الذي كان، إنّما الذي يهمّنا أن ينهض المشروع نهضة تليق بسمعة النجف ويؤدّي الواجب المُلقى على عاتقه كاملاً، وبأيّ ثمن، حتّى إذا كان ثمنه أرواحنا. وما أرخصها في سبيل الواجب.

وقد صرّحنا مراراً أنّنا لم نخط حتّى الآن إلّا خطوة قصيرة في سبيل ما يقصد من أهدافه).... وكذلك كانت قصّة النفس الكبيرة.

الفصل الثالث

مبادئ وأفكار

1 ـ الطائفيّة:

تعتبر الطائفيّة من أسبق المشاكل التي اعترضت سير الحياة الإسلاميّة، منذ وفاة صاحب الرسالة. ومن البديهي أنّ المفكّرين من المسلمين لم يقفوا موقفاً لا أُباليّاً إزاء مشكلة متمكِّنة من جسم المجتمع الإسلامي، من نحو ذلك، دون أن يحاولوا أن يجدوا علاجاً لها، طيلة هذه القرون الطويلة التي مرّت على المسلمين.

ولم ينشأ الانشقاق بين صفوف المسلمين نتيجة لتصادم الأفكار من داخل المجتمع الإسلام وحسب. فقد كان الاستعمار من الخارج يحاول منذ وقت بعيد إثارة الخلاف بين المسلمين وتجميد النشاط الإسلامي عن طريق ذلك، بشتّى الوسائل. ولم يعدم المسلمون، طيلة هذه المدّة، رجالاً مصلحين يبحثون عن علاج صحيح لهذه المشكلة. وبنظرة عابرة في تاريخ الفكر الإسلامي نجد أنّ الحلول التي توصّل إليها

المصلحون من العلماء طول هذه المدّة مختلفة في حدّ ذاتها، أشدّ الاختلاف.

فهناك من يؤمن بأنّ علاجِ المشكلة ينحصر في المقاومة السلبيّة للمذاهب الإسلاميّة المنحرفة عن الخط الإسلامي، ولا تفيد أي تقيّة أو أي مداراة في علاج المشكلة، ولا يكاد يرجع المسلمون إلى الإسلام في صفائه ونقائه، يوم جاء به رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله)، وكما يعرضه القرآن الكريم، إلّا إذا استعرضنا سائر المذاهب في ضوء البحث الحادّ، المطبوع بالقسوة والشدّة، قد يبلغ حدود النقد اللّاذع والسباب.

وقد أفادتنا التجارب التي مرّت على حياة المجتمع الإسلامي أنّ هذا اللّون من العلاج، الذي يتمخّض عن الشعور بالنقص والسلبيّة لا ينهض بشيء في هذا السبيل، وكلّ جهد يبذل في سبيل ذلك لا يعود على أصحابه بعائد، غير توسعة شقّة الانشطار وتجديد حِدّة الخلاف بين صفوف المسلمين.

وكم أُثير الخلاف بين المسلمين، على هذا المستوى، في الهند وباكستان وإيران والعراق، ولم ينهض بشيء، ولم يعد على المسلمين بعائد، بل أدّى إلى خلق مشكلات جديدة، كان المسلمون في غنىً من إثارتها.

وهناك من يؤمن، قِبال الطائفة الأُولى أنّ علاج المشكلة يتمّ عن طريق الإغفال والإهمال، فلو أجمع المسلمون على أن

يتناسوا ما بينهم من الخلاف ويتنازل كلّ واحد منهم للآخرين عمّا يعتقده، في سبيل توحيد الكلمة، لم يبق بين المسلمين شيء من هذا الخلاف الذي يعكّر بين حين وآخر صفو حياتهم.

ولعلّنا نحن في غنىً من أن نرد على هذه الوجهة من الرأي، فليس من الهيّن أن يتناسى الإنسان رأياً يؤمن به، أو يهمل شأناً من شؤونه الفكريّة، أو يتنازل للآخرين عن أفكاره الخاصّة التي يؤمن بها.

وليست العقيدة والفكرة شيئاً يمكن التنازل عنه. ومهما حاولنا أن نضحّي في سبيل وحدة الكلمة، فلا يمكن للمؤمن أن يهمل كيانه الفكري الخاص، ويذوب في كيان آخر لا يؤمن به.

وقد أثبتت لنا التجارب فوق ذلك كلّه، أنّ هذا الشيء لا يمكن تحقيقه، وإن أمكن ذلك برهة قصيرة من الوقت، فلا يستمرّ وقتاً طويلاً من الزمان.

وكان الشيخ محمّد رضا المظفّر من هؤلاء المفكّرين الذين كان يعنيهم شؤون المجتمع الإسلامي وقضاياه، وممّن حاول أن يتّخذ موقفاً محدّداً من قضيّة الطائفيّة.

وقد أفادته التجارب، فيما أفادته من شؤون الحياة، أنّ كلا الُاسلوبين المتقدّمين لا يعودان بشيء على المجتمع الإسلامي. فلا يكاد ينفع المسلمين هذا الموقف السلبي الذي يتّخذه البعض من المفكّرين من مسألة الطائفيّة. كما لا يمكن أن يتغاضى المؤمن عن عقيدته الخاصّة، ويتنازل عنها في هذا

السبيل. وفيما جرى له من حديث مع الدكتور أحمد أمين على صفحات مجلّة الرسالة ذكر المظفّر أنّ تناسي المشكلة أو التنازل عن شؤونها أمرٌ لا يمكن الموافقة عليه.

وحتّى لو أمكن المفكِّرين من الطائفتين، السُّنة والشيعة، أن يتنازلوا عن شيء من عقائدهما الخاصّة، فمن يضمن لهما الرأي العام؟

وهل يتيسّر لهؤلاء أن يكيّفوا الرأي العام، ويتبرّعوا عن جانبه بهذه التنازلات الرخيصة، بمثل هذه السرعة؟

والطريقة التي كان يؤمن بها المظفّر، ويعمل لها كان شيئاً بين هذا وذاك، لا يتّسم بالسلبيّة التي لا تعرف الرفق والأناة، ولا تتّسم بالإهمال الذي يفقد أيّ كيان فكري، فقد كان يؤمن بجدوى البحث والنقاش على أن يجري في جوٍّ طليق، لا يعكّر صفوه التعصّب والتقليد، ولا يتّسم بطابع السلب والعداء.

فلا يكاد يجدي مثل هذه المواقف السلبيّة في البحث والنقاش إن لم يؤدِّ إلى خلق مشكلات جديدة. ولا يمكن المساهلة في التسامح أو التضحية لتوحيد الكلمة إلى حدّ التنازل عن العقيدة أو الانصهار في كيان عقائدي آخر.

و العلاج الصحيح يتأتّى عن طريق الدراسات العلميّة والأبحاث الحرّة التي تجري في جوّ طليق، مُشبع بالحريّة الفكريّة بعيد عن التعصّب والتقليد، وفي ضوء الكتاب والسُّنة والتفكير الحُرّ.

وقد حاول المظفّر أن يسير على نهج ذلك في معالجة قضيّة الطائفيّة في كتابيه السقيفة وعلى هامش السقيفة، وفيما كتب في هذه المسألة من دراسات ومقالات، وما حاضر فيها من محاضرات في النجف وخارج النجف.

ولئن كان التوفيق الذي لقاه كتاب السقيفة من بين الكتب الُاخرى، التي تعنى بهذا الشأن يدلّ على شيء.... فإنّما يدلّ على مدى توفيق هذا الموقف من مواقف العمل في معالجة مشكلة الطائفيّة.

2 ـ القيادة الدينية:

لكي تستطيع القيادة الدينيّة أن تقوم بمهامّها القياديّة، من توجيه وإدارة، ينبغي أن تحفظ استقلالها وكيانها الخاص، بعيداً عن أيّ كيان آخر، ولا تذوب أو تندمج في أي كيان سياسي أو اجتماعي آخر، مهما كلّف الأمر.

ولا تكاد أن تندمج القيادة الدينيّة أو الزعامة في كيان سياسي أو اجتماعي، حتّى تفقد استقلالها وتأثيرها الخاص في قلوب المؤمنين، ودورها في التوجيه الديني والإدارة.

وتبدو أهميّة هذا الجانب، أكثر من أي حالة أُخرى، إذا وسّعنا من مدلول القيادة الدينيّة بشكل يشمل جميع وجوه النشاط الاجتماعي، ووضعنا القيادة الإسلاميّة على القمّة من النشاط الاجتماعي والشؤون السياسيّة والاجتماعيّة.

وانطلاقاً من هذه النقطة نستطيع أن نصحّح كثيراً من الانحرافات التي ظهرت على القيادة الدينيّة عند المسلمين والمسيحيّين، فقد ارتبطت (البابويّة) التي تمثّل القيادة المسيحيّة بالحكومات المسيحيّة، منذ العصور الوسطى وما بعدها، وفقدت كيانها الديني الخاص، واضطرّت في كثير من الأحوال أن تساير الجهاز الحاكم وتتكيّف مع ما يتعاقب على البلاد من حكومات. وكانت الحكومات المسيحيّة هي التي تموّن (الفاتيكان) بالمال في غالب الأحوال، وكانت الكنيسة تعتمد على ما تدرّ عليها الحكومات من مال.... ومثل هذا الموقف بطبيعته يتطلّب من الفاتيكان أن ينصهر في كيان الدولة، ويعتمد عليها، في وجوه نشاطه الديني.

ولم تسلم القيادة الدينيّة في الإسلام في بعض أدوار التاريخ الإسلامي من مثل ذلك. ولا نزال نجد ملامح من ذلك في بعض المراكز الإسلاميّة التي تعتمد في الجانب المادّي من حياتها على الحكومة.

وكما أنّ الارتباط بالحكومة يفقد القيادة الدينيّة استقلالها الخاص، كذلك الارتباط المباشر بأهواء الجمهور ورغباتهم يفقد القيادة الدينيّة طابعها الديني المستقلّ، ويجعلها أداة طيّعة بيد الجمهور، يميلون بها كما يريدون، ويلعبون بها كما يشاءون في خدمة مصالحهم الخاصّة.

والأمر ما قلت: (الارتباط بأهواء الجمهور). فالقيادة

الصالحة هي التي ترتبط بالجمهور، ولا تنفصل عنه، ولا تعيش بمعزل عنه، ولكن على أن تكون القيادة هي الموجّهة للجمهور، وهي التي تفرض رأيها على رغبات الجمهور، وتصحّح من آرائهم وتعدّل من اتّجاهاتهم، لا أن تكون هي في ركب الجمهور، وآلة طيّعة بأيديهم.

والقيادة الدينيّة الصالحة هي التي تحفظ استقلالها وكيانها الخاص، من أن تذوب في أي كيان سياسي أو اجتماعي آخر.

3 ـ التربية:

يشكو كثير من الطلبة سوء قابليّاتهم الفكريّة والذهنيّة وضعف إمكانيّاتهم العقليّة. وقد يبلغ ذلك ببعض الطلبة حدّ اليأس من الدراسة، فيترك الدرس جانباً ويلم بغيره من شؤون الحياة.

ويعتقد أنّ اللّه تعالى خلق الناس مختلفين من حيث الإمكانات العقليّة والقابليّات الذهنيّة. وإن كان اللّه لم يقدّر لأحد شيئاً من هذه المواهب الفكريّة التي تؤهّل الطالب للدراسة، فلا يفيد معه أي سعي واجتهاد.

وهذه فكرة خاطئة، وخطرة في نفس الوقت، تقضي على آمال كثير من الطلّاب، وتحرم الإنسانيّة من جهود كثير من أبنائها العاملين.

وقد كان الشيخ محمّد رضا المظفّر يؤمن بأنّ اختلاف

القابليّات الفكريّة لدى الطلّاب لا يبلغ هذا الحَدّ الذي يبدو لبعض الطلّاب (الضعفاء). وما يبدو لهم ضعفاً في الإمكانيّات الفكريّة والذهنيّة لا يتجاوز الجهل بطريقة التفكير، وممارسة النشاط الذهني، والتواني عن الاستمرار في هذا النشاط. وكم وجدنا من الطلّاب الأغبياء الذين كانوا مثاراً لسخرية زملائهم في الغباوة وضعف التفكير.... قد بلغوا بنتيجة الجهد المتواصل والاستمرار حدّ النبوغ، وخدموا الإنسانيّة بما كشفوا من آفاق المجهول.

4 ـ الألقاب:

واللّقب من الظواهر الاجتماعيّة الهامّة، وذات دلالة عميقة على ذهنيّة المجتمع. ومن حدود الألقاب ومداليلها وضخامة محتواها نستطيع أن نكشف عن شخصيّة الاُمّة الفكريّة.

فالاُمم التي تعاني شيئاً من الفقر الفكري تهتمّ بالألقاب أكثر من غيرها، كما أنّ الألقاب الضخمة تشيع عادةً بين الاُمم المتأخّرة فكريّاً.

والاُمم المتقدّمة تجد من آفاق النشاط الممتدّة، أمامها ما يغنيها من هذه الألقاب الفارغة التي لا تدلّ على شيء.

يقول الشيخ المظفّر في بعض مذكّراته عن بعض هذه الألقاب الضخمة التي تعطى إلى الأشخاص من غير حساب

(ثمّ ابتذل هذا اللّقب المسكين في الحقبة الأخيرة من قرننا الحاضر فصار يلصق بأشباه العلماء ممّن لهم أدنى شأن اجتماعي.

ولقد صارت هذه الألقاب بعد ـ ابتذالها ـ لا تعني معانيها الحقيقيّة فالتجأوا إلى إضافة مثل كلمة الكبير إلى العلّامة[1].

ومن العجيب أنّ هذه الإضافات أيضاً ابتذلت ففقدت مدلولها فالتجأوا إلى ألقاب ضخمة أُخرى مثل (الإمام الأكبر) و.....

وهذه الألقاب التي فرغت من مداليلها لا تدلّ إلّا على فراغ من يجب أن يتحلّى بها).

ولا شكّ أنّ التسابق إلى الألقاب ظاهرة اجتماعيّة تلفت النظر، وأكثر ما تدلّ على التأخّر الاجتماعي والفقر الروحي فيتفنّن الناس بالقشور، ويزهدون بالحقائق واللّباب. وهذا مركّب نقص اجتماعي، أكثر منه مركّب نقص فردي. بصّر اللّه تعالى المسلمين بعواقب أُمورهم.

قس هذا الافتتان بقصّة تأبّي السيّد الشريف المرتضى من لقب «علم الهدى» الذي منحه إيّاه الوزير محمّد بن الحسين بن

(1) كلمة العلّامة فيها دلالتان على المبالغة بالصيغة والهاء، فأي محلّ لكلمة الكبير، والعلّامة أكبر من الكبير.

عبد الرحيم سنة 420هـ، فامتنع من قبوله قائلاً: (اللّه اللّه في أمري، فإنّ قبولي لهذا اللّقب شناعةٌ عَليّ). حتّى رفع الوزير أمره إلى الخليفة القادر ففرضه عليه[1].

* * *

أمّا بعدُ: فهذه خِلال من حياة الشيخ المظفّر، وملامح من شخصيّة قدّمتها إلى القارئ الكريم، بمثل هذا العرض السريع ليتبيّن من خلال تلك الظِّلال وهذه الملامح، صورة ناطقة من الجهاد الإسلامي، والإصلاح، والإخلاص.

وهذا كلّ ما أملكه من دموع الوفاء... أسكبها على تربته الزكيّة، وكلّما يسعدني به النفس من شوق وحنين إليه.

شكر واعتراف

لا يسَعني وأنا أختم هذا الحديث إلّا أن أشكر الأخوين الكريمين الفاضلين العلّامة الشيخ محمود المظفّر والعلّامة الشيخ عبد الهادي الفضلي على ما تفضّلا به عليَّ من عون في نشر هذا الكتاب وكتابة فصوله، وأن أعترف لهما بالجميل في إنجاز هذا الحديث.

---

(1) راجع: مجالس المؤمنين، ص209.

الفهرس

المؤلّف

- الشيخ محمّد مهدي الآصفي من مواليد النجف (العراق) عام 1357هـ/ 1938م.
- درس في الحوزة العلميّة في النجف إلى جانب دراساته الأكاديميّة في كليّة الفقه.
- فقيه وأُستاذ دراسات عليا في الحوزة العلميّة في مدينة قم.

من آثاره المنشورة

1 ـ حقيقة الحريّة، 1960م.
2 ـ المسائل الفقهيّة.
3 ـ أثر العلوم التجريبيّة في الإيمان بالله.
4 ـ من حديث الدعوة والدّعاة.
5 ـ المدخل إلى دراسة التشريع الإسلامي.
6 ـ الإمامة في التشريع الإسلامي... تجديد في بحث الإمامة، 1963م.
7 ـ ترجمة كتاب نظريّة السياسة والحكم في الإسلام للعلّامة الطباطبائي، 1965م.
8 ـ ساعات الفراغ، 1967.
9 ـ العلاقة الجنسيّة في القرآن الكريم، 1968.
10 ـ سلسلة في رحاب القرآن (6 جزء)، 1411 هـ
11 ـ ولاية الأمر، 1416.
12 ـ النظام المالي وتداول الثروة في الإسلام.
13 ـ الاجتهاد والتقليد وسلطات الفقيه وصلاحياته، 1996م.
14 ـ الشيخ محمّد رضا المظفّر وتطوّر الحركة الإصلاحيّة في النجف، 1419هـ

إضافة إلى بحوث ودراسات كثيرة منشورة في الدوريّات المحليّة والعالميّة.

روّاد الاصلاح

روّاد الاصلاح سلسلة كتاب تعنى بدراسة مشاريع الاصلاح التي نهض بها الروّاد المسلمون، وتطمح الى رقي وعي الفرد والامة الى مستوى المسؤولية الرسالية، لذا تبدي مؤسسة المثقف العربي www.almothaqaf.com استعدادها لنشر الدراسات التي تتوافر فيها الشروط الاتية:

1 - أن تكون المادة منسجمة مع الخط العام للمؤسسة، من حيث التخصص والتوجه الفكري والثقافي.

2 - مراعاة الجانب المنهجي والعلمي بعيدا عن لغة الاستعراض، وتحمل أفكارا جديدة.

3 - اعتماد الاصول العلمية المتعارفة في الكتابة، كالدقة في استعمال المصادر والمراجع وتثبيتها بعناوينها الكاملة مع اسماء كتّابها وأرقام الصفحات، واسم الناشر، ومكان النشر، ورقم وتاريخ الطبعة، مع قائمة بالمصادر منفصلة عن الهوامش.

4 - من حق المؤسسة اجراء تعديلات على المادة واختصار بعض فقراتها، او الطلب من الكاتب القيام بذلك.

5 - يرفق مع مخطوطة الكتاب:

أ - ملخص للكتاب يشتمل على أهم ما ورد فيه من (5-10) صفحات.

ب - نبذة عن حياة الكاتب العلمية مشيرا فيها الى أهم أعماله.

ماجد الغرباوي

رئيس التحرير - المدير المسؤول

almothaqaf@almothaqaf.com

صدر عنها في طبعاتها الجديدة:

- الشيخ محمد حسين النائيني... منظّر الحركة الدستورية
/ ماجد الغرباوي
- منهج الشهيد محمد باقر الصدر في تجديد الفكري الاسلامي
/ د. عبد الجبار الرفاعي
- الشيخ محمّد رضا المظفّر وتطوّر الحركة الإصلاحيّة في النجف
/ الشيخ محمد مهدي الآصفي

مؤسسة المثقف العربي

◆

مؤسسة المثقف العربي، مؤسسة غير حكومية، تعنى بالشأن المعرفي، وتمارس نشاطها في مجالات الثقافة والفكر والأدب والفنون. تتخذ من مدينة سيدني الأسترالية مكتبا رئيسا لها، ومن صحيفة المثقف موقعا على الشبكة العنكبوتية.

جاء الإعلان عن تأسيس مؤسسة المثقف العربي في **05/ 01/ 2010**م استجابة لمتطلبات العمل الإعلامي الراهنة، وتلبية لضرورات نشر وتعزيز وإشاعة ثقافة التسامح والمحبة والتكافل، وإيجاد مركزية مؤسساتية تضمن ترابط الأعمال الصادرة عنها، ووضعها في سياق العمل المنظم. فبعد عمل متواصل لثلاث سنوات في صحيفة المثقف انبثقت نشاطات اخرى، تطلبت وجود مؤسسة لإدارة شؤونها وتسيير أعمالها.

ومؤسسة المثقف العربي جهة مستقلة، تـرفض العنف والتكفير، والتطرف المذهبي والسياسي، وتستقل برؤية بعيدا عن تشظيات الأيديولوجيا وكل الانقسامات والخصوصيات التي تنال من كرامة الفرد والمجتمع. ساعية إلى ترسيخ قيم الانسان عبر إشاعة ثقافة التسامح والمحبة والأخوة ووحدة المصير البشري.

ينبثق عن إدارة المؤسسة مجلس استشاري، يساهم في ترشيد سياسة المؤسسة، والتخطيط لمشاريعها المستقبلية، كما ستمثل نشاطات المؤسسة خارج استراليا نخبة من المثقفين، سعيا منهم لتعميق الأواصر الثقافية بين أبناء الكيان المجتمعي المتحد.

مبادئ مؤسسة المثقف العربي

- نؤمن بالتعددية والرأي الآخر.
- ندعو للتعايش بين الأديان والثقافات.
- نتبنى قيم: التسامح، والحرية، والديمقراطية، وحقوق الانسان.
- نحارب العنف والتحريض والتكفير.
- نرفض الخطاب الطائفي والأيديولوجي المحرض.
- نساهم في تعميق لغة الحوار والتفاهم وفق الثوابت الأساسية المستمدة من تعاليم السماء وقوانين الأرض.
- نعنى بالمثقف ومواقفه إزاء الأحداث و التحديات، ونعرف بإنجازاته وأعماله ومشاريعه.

ماجد الغرباوي

رئيس مؤسسة المثقف العربي

اصدارات مؤسسة المثقف العربي

- تجليات الحنين... في تكريم الشاعر يحيى السماوي
- الضد النوعي للاستبداد
- استفهامات حول جدوى المشروع السياسي الديني... ماجد الغرباوي
- امرأة بين حضارتين... حوار مفتوح مع ا. د. إنعام الهاشمي
- د.عبد الرضا عليّ... رحلة متوهّجة في فضاءِ النقدِ والدرسِ الأكاديمي
- جذِلاً... بينَ سِربِ السنونو... سعد الحجّي
- وفاء عبد الرزاق... افق بين التكثيف والتجريب
- شوكت الربيعي... فضاء ابداعي متوهج
- مدارات ايديولوجية... حوار مفتوح مع الاستاذ سلام كاظم فرج
- الشيخ محمد حسين النائي... منظر الحركة الدستورية... ماجد الغرباوي
- أيلولٍ وضوء القمرِ... د. هناء القاضي
- أدخلُ جسدي أدخلُكم... وفاء عبد الرزاق
- غرّيد القصب... سنية عبد عون رشو
- تعالي لأبحثَ فيك عنّي... يحيى السماوي
- مدخل الى الضوء... وفاء عبد الرزاق
- المتخيل التعبيرى... د. نادر أحمدعبد الخالق
- منهج الشهيد محمد باقر الصدر في تجديد الفكر الاسلامي... د. عبد الجبار الرفاعي.
- ترنيمتان لمنفى واحد... سوزان سامي جميل وأفين ابراهيم
- مطارحات حول الحجاب والزينة في الشرع الإسلامي... غالب حسن الشابندر
- (مسرحية) رحلة ابن عوف الى بلاد الخوف... محمد تقي جمال الدين
- العُمْرَان البشري الإسلامي... دراسة تأصيلية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية... د. رشيد كُهُوس
- في غياب الجواب... وفاء عبد الرزاق
- أغلال أخرى... وفاء عبد الرزاق
- وجوه أشباح وأخيلة... وفاء عبد الرزاق
- إدمان السياسية... سيرة: من القومية للماركسية للديمقراطية... جورج كتن
- الزمن المستحيل... وفاء عبد الرزاق
- حاموت... وفاء عبد الرزاق
- سطر... الشارع... فلاح الشابندر
- توظيف النص القرآني في شعر أحمد مطر... أ. د. محمد ثامر السعدون الحسيني
- البحث عن اللون... حسن البصام
- العقل... قراءات في اشكالية العقل عبر المدارس الفلسفية المتنوعة (1)... غالب حسن الشابندر
- العقل... قراءات في اشكالية العقل عبر المدارس الفلسفية المتنوعة (2)... غالب حسن الشابندر
- أنقذيني مني... يحيى السماوي
- فنتازيا النّص في كتابات وفاء عبد الرزاق / د. وليد جاسم الزبيدي

- صمغ اسود / وفاء عبد الرزاق
- الطيور المهاجرة ورماد المودة / حوار مفتوح مع ا. د. عبد الاله الصائغ
- أنا ليلى حتى الرمقِ الأخيرِ / سوزان عون
- الاغتيال الاموي للبحر (مسرحية) / محمد تقي جمال الدين
- المرأة والقرآن... حوار في اشكاليات التشريع / د. ماجدة غضبان وماجد الغرباي
- تطوّر المباني الفكريّة للتشيّع / د. حسين المدرسي الطباطبائي
- الشيخ محمّد رضا المظفّر وتطوّر الحركة الإصلاحيّة في النجف... الشيخ محمد مهدي الآصفي

AAA - Sydney - Australia
Almothaqaf Arabic Association

مؤسسة المثقف العربي 2010



كان وعي الشيخ المظفر كبيرا، لا يلائم مناخات الوسط الذي اكتنفه آنذاك، إلا أنه استطاع أن يخطو خطوات واسعة عبر مشاريعه العمليّة، وظلّ وفياً لأفكاره في الإصلاح والتجديد.

ومن يتأمل حياة هذا الرجل العظيم تستفيق أمامه كلّ لحظات اليأس المترشحة عن تعقيدات الوضع القائم، والتي تشكّل- عادة- تحدّياً يفت بعضد المسيرة. فحينما نقرأ مذكّراته عن ولادة مشاريعه الإصلاحيّة- في هذا الكتاب- نستكشف حجم المعاناة عندما تتحوّل الأفكار إلى مشاريع يُراد لها أن تشقّ طريقها وسط اللغط المتصاعد ضدّ أي مشروع إصلاحي،

الشيخ محمد مهدي الآصفي

يسجل للآصفي رحمه الله موقفه الصارم من قانون (الشأنية) المتبع في توزيع الحقوق والمساعدات المالية، إذ اعتاد الوسط الديني في الحوزات العلمية أن يخص أصحاب الشأن الإجتماعي من رجال الدين بعطايا باذخة، طالما تكون على حساب الفقراء والمساكين، فيعطى صاحب الشأن اضعافا مضاعفة كلا حسب شأنه ومكانته، بينما يهمل الفقير، بل يتجاهله آخرون تحت ذرائع شتى. أما الآصفي فرفض العمل بهذا القانون الجائر، وقال صريحا: الناس سواسية، خاصة ونحن نعيش محنة المهجر معا. وبذلك أعاد للفقراء مكانتهم وحيثيتهم التي سرقها رجال الدين والمتنفذون في أروقة المرجعيات الدينية.

ماجد الغرباوي

ISBN 978-614-441-068-4

العارف للمطبوعات
www.alaref.net